353

HARLEQUIN

روايات أحلام

رياح الجمر

ريبيكا ونترز

www.elromancia.com
مرمورية

رياح الجمر

إنها آخر فرصة لأندريا لكي ترزق بطفل . لكن كيف تجد لها زوجا بهذه السرعة !

كم كانت مفاجأتها شديدة عندما سمعت مديرها الثري الساحر يقترح عليها عرضا لا يقبل الرفض :

- لنتزوج حالا ونحاول أن ننجب في أسرع وقت ممكن !

- ولكن ماذا لو لم أحمل !

- سنفكر عندئذ بحل !

- أتعني الطلاق !

اعتصر قلب أندريا وهي تسمعه يتكلم بهذه البرودة عن رباط الزواج المقدس ... لكن ما كان غاب كوربن يفكر به الآن هو كيف يثبت لها أن الهدف من عرضه هذا ليس فقط ... الشفقة !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-266-7

ريبيكا وينترز

أم لأربعة أولاد، ومعلمة سابقة.

تركت مهنة التدريس حيث كانت تدرس اللغتين الفرنسية والإسبانية. أصبحت اليوم قادرة على تمضية المزيد من الوقت مع أسرتها، والقيام بالأسفار وكتابة الروايات لـ «ميلز أند بونز». تلك الروايات التي تحبها كثيراً.

يمكنكم زيارة موقعها على الإنترنت:

http: www. rebecca winters-author.com

١ ـ أرض الأحلام

ـ رباه!

دمدم سول كارش غاضباً قبل أن يشعل طرف سيجاره، وهو من النوع الذي اشتهر به نادي ماكنودو، الواقع في الناحية الشرقية من مانهاتن.

ـ هل فقدت صوابك؟

أجابه غاب كوربن: «في الواقع، أشعر بأنني سليم العقل أكثر من ذي قبل».

كان حري به أن يبيع الشركة منذ سنتين.

ـ إنك أول العارفين بالأمر، إلى جانب سام بون الذي يشغل حالياً منصب مدير عام بالوكالة، فإن كنت تريد شراء حصتي كاملة، عليك أن تتخذ قرارك في غضون خمسة أيام، وإلا وجدت شارياً آخر.

ـ ولم العجلة؟ لم تتجاوز السادسة والثلاثين من عمرك بعد.

ـ أشعر وكأنني تقدمت كثيراً في السن.

وإذ أدرك سول أن غاب لن يفضي إليه بمكنونات قلبه، أخذ نفساً عميقاً من سيجاره ثم قال له: «يبدو لي من خلال إصرارك على بيع شركة يبلغ رأسمالها مليون دولار، وشهدت ازدهاراً لافتاً على مر السنوات، بأن أسبابك شخصية بحتة».

وظهرت في عينيه أمارات القلق: «لا أظنك تحتضر، أليس كذلك؟».

ـ أتقصد أنني أعاني من مرض خطير؟ كلا.

www.elromancia.com

وارتشف غاب ما تبقى من عصيره قائلاً: «أرسل رجالك غداً ليطلعوا على دفاتر الحسابات وسيتولى مساعد ڤيل روزن عرضها عليهم. حاول أن تصل إلى قرار قبل نهار الإثنين، لأنني مضطر بعدها إلى السفر، وعليك عندئذٍ أن تتعامل مع سام».

وسول هو مدير عام شركة كارش للتكنولوجيا الرائدة في تجارة أجهزة الكومبيوتر الحديثة، المخصصة للأبحاث الطبية وبرامج الفضاء. وها هي الفرصة متاحة أمامه الآن لشراء شركة غاب، ما سيفتح أمامه آفاقاً جديدة، آفاق سعى وراءها مدة طويلة، حسب ما قيل لغاب. صحيح أن سول متحجر القلب ومتسلط إلى حد ما، إلا أنه اشتهر بالتزامه بآداب المهنة، ولم يكن غاب يثق إلا به، من بين المقاولين الأميركيين الخمسة الذين يتمتعون بالإمكانيات المادية اللازمة لشراء حصته، لتحسين معاملة موظفيه، وقيادة الشركة على الطريق الصحيح.

خيم الصمت المطبق على الرجلين فيما هما جالسان يحدقان ببعضهما البعض. صمت خرقه سول في نهاية المطاف، قائلاً: «سيحضر ستان ابرامز وفريق عمله عند التاسعة صباحاً».

هذه هي الكلمات التي انتظر غاب طويلاً ليسمعها.

ـ ممتاز!

ورمى على الطاولة ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً، ثم نهض من مكانه وقال: «سررت برؤيتك ثانية يا سول».

وصافح يد العجوز مضيفاً: «آمل أن يستمر تعاملنا!».

ـ اسمع يا غاب، لدي ابن في مثل سنك، ولو خطر في باله أن يقدم على خطوة بهذا الحجم لساورتني الشكوك. هل أنت مدرك تماماً لما أنت مقدم عليه؟

كان قلق العجوز خير دليل على أن اختيار غاب وقع على الشخص

المناسب فقال: «إنني مدرك تماماً لما أفعله».

وغادر المقهى تاركاً سول يدخن سيجاره، غارقاً في حيرته.

صعد غاب إلى سيارة الليموزين التي كانت تنتظره أمام المقهى وقال للسائق: «أعدني إلى المكتب يا بني».

ـ حاضر سيدي.

عليه أن ينجز الكثير من الأعمال بعد أن بات شبه متأكد من أن سول سيشتري حصته. اتصل بڤيل و سام من هاتفه الخليوي وطلب منهما العودة إلى المكتب فور الانتهاء من تناول عشائهما، إذ كان يتوقع أن يعملوا جميعاً حتى ساعة متأخرة من الليل. فعملية تخليه عن الشركة العالمية التي بناها خلال الأربع عشرة سنة الماضية معقدة بعض الشيء. إلا أن نور الفرج بدأ يلوح لغاب من بعيد، في انتظار وصول رجال سول في الصباح.

وقف غاب في مدخل المبنى ينتظر المصعد ليقله إلى الطابق الذي يقع فيه مكتبه، وإذا بمدير المبيعات، بريت ويلدز، يخرج من المصعد الآخر. إنها المرة الأولى التي يراه فيها لوحده من دون اندريا بوير، لا سيما بعد أن أوحى إليه بأنه يقيم معها، منذ حوالى الثلاثة أو الأربعة أشهر. ولا يذكر غاب أنه شاهد أندريا لوحدها إلا لماماً، لأن بريت يلازمها باستمرار، مظهراً اهتماماً كبيراً بها لامس حدود التملك.

إنها لمعجزة حقاً ألا يترك ذلك أثراً على أدائهما في العمل، فهما يقومان به على أكمل وجه، ولا يتركان لغاب سبيلاً للتذمر. أحنى غاب رأسه لدى رؤيته بريت وسأله: «أين نصفك الآخر هذا المساء؟».

ـ إنها تحضّر العشاء في المنزل.

أثارت فكرة وجودهما معاً خلف الأبواب المغلقة، يفعلان كل ما يحلو لهما، عدا تناول الطعام، انزعاج غاب، انزعاج فاق توقعاته كلها.

ـ كم أنت محظوظ!

ودخل المصعد على عجل، فرماه بريت بابتسامة سريعة، وقال له قبل أن تنغلق الأبواب: «لا شك عندي في ذلك!».

لحسن الحظ أن حديثهما لم يتجاوز هذا الحد، إذ كان غاب على وشك أن يمسح تعابير الاعتداد بالنفس عن وجهه.

عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً، دخلت أندريا مسرعة إلى مكتب رب عملها، فرفعت السكرتيرة نظرها إليها وقالت لها: «مرحباً يا أندريا، كيف يسعني أن أخدمك؟».

ـ هل السيد كوربن موجود؟

ـ أجل. وجدته في المكتب عند وصولي.

ـ حسناً. أريد مقابلته في الحال.

ـ انتظري قليلاً لأتأكد من أنه غير مشغول حالياً.

ـ شكراً لك.

بعد زيارتها للطبيب النسائي، بعد ظهر أمس، باتت أندريا واثقة مما عليها فعله، إذ لم يعد بوسعها أن ترجىء المحتوم إلى ما لا نهاية.

ـ يمكنك الدخول.

ـ شكراً يا كارن.

وهرعت أندريا إلى مكتب رب عملها الخاص قائلة: «اعذرني على اقتحامي مكتبك من دون موعد، مع أنني أعرف مدى انشغالك».

سلط نظرات عينيه الثاقبتين عليها وأجابها: «لا داعي للاعتذار عن طلبك مقابلتي. يبدو عليك القلق، اجلسي واخبريني ما بك».

كانت نبرة صوته توحي بالثقة، فلم تتوان عن الإذعان لطلبه.

ـ زرت طبيبي البارحة، ويبدو أن التهاب بطانة الرحم قد عاودني.

ـ ماذا قلت؟

ـ التهاب بطانة الرحم.

لم تشعر أندريا بالارتياح لفكرة الكشف عن أسرارها الشخصية، ولكنها لم تجد سبيلاً لتفادي الأمر.

ـ تبين أنه مرض يصيب المرأة العصرية ومرده إلى الضغط النفسي.

استقام رب عملها في مجلسه على الكرسي الدوار وراح يرميها بنظرات متزنة: «ألهذا السبب أخذت ثلاث إجازات شخصية، منذ أن بدأت العمل معنا؟».

هل كان يتعقب أخبارها؟ كم هذا محرج! ولكن معاملته الرقيقة لها، أزالت احساسها بالاحراج وحثتها على الافشاء له بالتفاصيل كافة: «أجل، وسبق أن خضعت لستة فحوصات ناظورية للأحشاء، قبل أن أتقدم بطلب للعمل في شركتكم».

ـ آسف يا أندريا، لم يكن لدي أدنى فكرة عن الموضوع.

ثم أومضت عيناه المتقدتان بالشفقة وقال: «وما هو علاج هذا المرض؟».

ـ استئصال الرحم، قررت الخضوع لهذه العملية في أقرب فرصة ممكنة، وهذا هو سبب حضوري لمقابلتك. أريدك أن توافق لي على إجازة طويلة.

ـ ولكنك في الثامنة والعشرين من العمر، وما زلت في ريعان الشباب.

أحست أندريا بأنه يهتم لأمرها حقاً، فضغطت على نفسها كي لا تنفجر بالبكاء.

ـ ليس في مثل حالتي. يصيب هذا المرض، عادة، النساء في سني

الإنجاب، ولكنني أتصارع معه منذ أكثر من عشر سنوات، ولم أعد أقوى على تحمل المزيد. يقول الطبيب إنه يلزمني ستة أسابيع من النقاهة، قبل أن أتمكن من العودة إلى العمل. أعلم أنها فترة طويلة ولكنني واثقة من أن داريل لن يخذلك، فهو نابغة.

قطب غاب جبينه: «هل من حل آخر قبل حرمانك من فرصة انجاب الأولاد؟».

تمتمت أندريا، مكرهة: «بلى، عليّ أن أحمل في الحال قبل أن يتفاقم الالتهاب فتزداد حالتي سوءاً. ولكن هذا الحل غير مطروح للبحث».

ـ لماذا؟.

اصراره على رميها بوابل من الأسئلة الشخصية صعقها، لا سيّما أنها لجأت إليه ليوافق على منحها إجازة طويلة لإجراء العملية فحسب، فمنذ حوالى الستة أشهر، تمكنت أندريا، بفضل اجازتها في هندسة الكومبيوتر، والخبرة التي اكتسبتها من خلال عملها في شركة ستوفر، من الحصول على وظيفة في شركة كوربن للكومبيوتر. وشغلت خلال الأربعة أشهر الماضية، منصب المهندسة المسؤولة عن معدات الكومبيوتر. وهو منصب خولها أن تعمل بشكل مباشر مع غاب. غير أن علاقتهما بقيت، طوال هذه الفترة، محصورة ضمن حدود العمل. إذ لم يحاول قط أن يحشر أنفه في أمورها الشخصية، كما أنها لا تملك أدنى فكرة عن حياته الشخصية أيضاً. ولكنها لم تستطع أن تتجاهل شخصيته المحركة أو فضوله الفطري بشأن أمور الحياة. فهاتان الصفتان دفعتاه إلى بلوغ قمم النجاح، مثيراً دهشة المتمرسين في حقل المال.

ـ لا بد أن الأمر صعب عليك. ولكن، هل يمكنك الانجاب؟

ارتجفت أوصالها، عاقر! يا لها من كلمة مروعة! كانت أندريا تخشى أن تكون عاجزة عن إنجاب الأطفال، ولكن من سوء حظها أنها لن تتمكن

من معرفة الحقيقة أبداً.

ـ لا أعرف. لم أتزوج من قبل.

ـ ولكن ذلك لم يمنعك من مساكنة رجل. قيل لي إنك و بريت.

قاطعته قائلة: «ليس صحيحاً ما يشاع في الشركة».

ـ هذا غريب!.

استعاد غاب نبرة صوته الخفيضة: «أوحى إلي بريت بالعكس تماماً، حين التقينا مساء أمس في مدخل المبنى».

أطلقت أندريا تنهيدة غضب: «كذب عليك، لقد وضعت حداً لعلاقتنا منذ قرابة الشهر».

ـ إنه من نخبة الموظفين في الشركة، فلِمَ تراه يختلق قصة مماثلة؟

بدا رب عملها مصراً على المضي قدماً في أسئلته الفضولية، فأرجعت أندريا رأسها إلى الخلف، ليلامس شعرها الأشقر العسلي كتفيها، وأجابته قائلة: «ألا تظن أن الإنسان المجروح قادر على الاقدام على تصرف مماثل؟ اسمع، إن كنت مصراً على معرفة الحقيقة، فاعلم أنني لم أقم علاقة مع أي رجل في حياتي، بصرف النظر عن مساكنته».

ضاقت عيناه الرماديتان، وقد ظهرت فيهما أمارات الارتياب. ولاحظت أندريا بأن رموشه الهدباء أشد سواداً من شعره الأجعد، وأن أنفه الشامخ وفكاه الصلبان وذقنه التي تحتاج للحلاقة غالباً، تخفي بين ثناياها آثار الدم الأوروبي الجنوبي الذي يجري في عروقه.

وإذ لم ينبس ببنت شفة، وجدت نفسها تقول له:

ـ لا أجد مبرراً لذهولك. ثمة نساء كثيرات يفضلنّ الزواج أولاً. ربما تحسبني غريبة الأطوار، ولكنني أصون نفسي تجنباً للأذى.

سمعت صوتها المرتجف بعض الشيء، فهبت واقفة وقد خشيت أن

يفتضح أمرها. إنها اللحظة المؤاتية لتقول له ما تريد وتغادر المكتب قبل أن تجهش بالبكاء.

ـ حدد لي الطبيب موعداً الأسبوع المقبل لاجراء العملية، وسأبذل جهدي خلال اليومين المقبلين، لأهيىء داريل ليحل محلي. أؤكد لك أنه الشخص الأنسب ليأخذ مكاني.

أحست وكأن نظرات غاب الأشبه بإشعاعات اللايزر ثبتتها على الحائط:

ـ ما المشكلة يا أندريا؟

هل تعترف له بأن المشكلة تكمن فيه؟

ـ أخبرتك مرة بأن والديّ يملكان متجراً للهدايا في سكار سدال، ومنذ فترة بعيدة وهما يلحان علي لأعود إلى المنزل وأساعدهما في العمل، ولكنني كنت أردد لهما دوماً بأنني لن أعود إلا في الوقت المناسب. وأظن أن الوقت المناسب قد حان وقد بات والديّ اليوم متقدمين في السن وعاجزين عن الاهتمام بالمتجر بمفردهما.

ـ أظنك تمزحين!

جاءت كلماته عنيفة، على غير عادة، إذ لم تسمعه أندريا يرفع صوته أبداً من قبل.

ـ أتيت إلى هنا تطلبين مني إجازة مرضية، وانتهى بك الأمر إلى الافصاح عن رغبتك بترك العمل. سأطرد بريت قبل أن أسمح بحصول ذلك..

ـ لا. لا تفعل ذلك!

ورفعت إليه عينيها الزرقاوين المتوسلتين: «أعترف لك بأنني خذلت بريت، حين طلب مني الانتقال للعيش معه، فأنا لا أحبه. وأظنه كان

يحاول الحفاظ على ماء الوجه أمامك وأمام الآخرين».

ظهرت على قسمات وجه غاب تعابير غريبة، لم تستطع أندريا أن تسبر كنهها، وأسند ظهره إلى الكرسي، يحدق فيها بامعان أثار انزعاجها: «لم أكن أعلم بالأمر».

ـ لا يمكنك أن تحقد عليه بسبب ذلك.

ـ لن أفعل!

ردّت هامسة وقد تنفست الصعداء: «شكراً لك».

ـ على الرحب والسعة. والحق يقال إن قلقك عليه مثير للدهشة. من المؤسف أن أمثالك من المحافظين على آداب السلوك باتوا قلّة.

أخفضت أندريا رأسها حياءً، قبل أن تقول: « لا تجعلني أبدو وكأنني قديسة، كان حري بي أن أفكر ملياً قبل التورط مع زميل لي».

كانت أندريا واقعة في هوى غاب، ولم تعِ مدى عمق عواطف بريت تجاهها إلا بعد فوات الأوان. ولكن من يجرؤ على منافسة الرجل الجالس قبالتها؟ فذكاؤه المتقد ورجولته النابضة أعمتا عينيها عن رجال العالم كلهم، وعلى الرغم من إنكارها الشديد لذلك، أدرك بريت حقيقة مشاعرها، واتهمها بحبه جهاراً. غير أنها لم تخل أن غيرته قد تدفعه إلى إخبار غاب أمراً يبعد كل البعد عن الصحة. سلمت أندريا في سرها بأن الوضع بات لا يطاق، فأخذت نفساً عميقاً وقالت لـ غاب: «سأستغل فترة النقاهة التي سأقضيها في منزل والديّ، لأقدم استقالتي. يستطيع داريل خلال هذا الوقت أن يتصل بي هاتفياً لاستشارتي في شؤون العمل، فلا أسبب لشركتك أي ضرر».

مرر غاب إبهامه بخفة على شفته العليا وقال: «إن كنت مصرة على إجراء العملية في القريب العاجل، فليس بيدي حيلة!».

صحيح أن الطبيب منحها مهلة ستة أشهر لإجراء العملية، إلا أنها قد تعاني خلال هذه الفترة من آلام مبرحة.

ومع أن قرار إجراء العملية سواء في القريب العاجل أو في ما بعد يمزق فؤادها، ولكنها تفضل أن تكون في كامل عافيتها حين تدخل المستشفى، لتقوى على مواجهة محنتها.

ما أثار ارتباكها في تلك اللحظة، هو تقبل رب عملها فكرة تركها للعمل برحابة صدر.

- يسرني أنك تفهمت الوضع.

- هل تشعرين بالألم حالياً؟

- كلا.

- جيد. سنسافر إذن إلى باريس هذا الصباح، بدلاً من الأسبوع المقبل، كما كان مقرراً. أود أن يتعرف إميل وفريق عمله، على المهندسة المسؤولة عن البرامج الألكترونية في شركتي، قبل رحيلك.

تركت كلماته تلك أندريا في حالة من الذهول، وهي تتصارع مع أفكارها المشوشة، باريس! ربما كانت هذه الرحلة مدرجة على جدول أعمال غاب، إلا أن أندريا تجهل كل شيء عنها، فبعد ترقيتها، سافرت برفقته إلى ريو و سنغافورة في رحلتي عمل، ولكنها لم تزر أوروبا من قبل. تلك البقعة من العالم التي لطالما حلمت بالسفر إليها في رحلة شهر عسل، إنه حلم آخر من أحلامها الواهية، شبيه بذلك الحلم الذي رأت فيه نفسها أماً لطفل من غاب.

- سنمضي عطلة نهاية الأسبوع كلها في فرنسا. كم يلزمك من الوقت للاستعداد للسفر؟

إنها رحلتها الأخيرة برفقته، وأحست بالألم يعتصر فؤادها.

- يمكنني أن أوضب حقائبي خلال نصف ساعة.

لن تحتاج أندريا إلا للقليل من الملابس. فهي تعرف غاب حق المعرفة وتدرك أنه سينكب على العمل مع الفريق، منذ لحظة وصولهما ولغاية بعد ظهر يوم الأحد، موعد عودتهما إلى ديارهما.

- سيقلك بيني إلى شقتك وينتظرك في السيارة ريثما توضبين أغراضك. أراك في الطائرة، ولا تنسي أن تجلبي جواز سفرك.

غادرت أندريا مكتبه مصعوقة، وكأن أحدهم ضربها على رأسها فأغمي عليها، ثم بدأت تستعيد وعيها. ولكن الرؤية بقيت ضبابية تماماً. خرجت من مكتب السكرتيرة وأسرعت إلى مكتبها لتجلب حقيبة يدها.

تحتل مكاتب شركة كوربن الطابقين التاسع والعشرين والثلاثين من مبنى ساكبي في منهاتن. وقفت أندريا تنتظر المصعد ليقلها إلى مدخل المبنى، ملقية التحية على شابتين وصلتا لتوهما إلى العمل. ولم تكد تمضي دقائق قليلة حتى وصل المصعد وفُتحت أبوابه. وإذا بـ بريت يخرج منه حاملاً ملفاً بيده، فمكتب المبيعات يقع في الطابق العلوي.

- اندريا!

- مرحباً يا بريت!

ودخلت المصعد آملة ألا يلحق بها. ولحسن حظها، بقي بريت مسمراً أمام باب المصعد يحدق بها بعينين مليئتين بالأسى، إلى أن انغلقت الأبواب.

لم تفارق صورته ذهنها حتى صعدت إلى سيارة الليموزين. ورأت في نهاية المطاف، بأن استقالتها هي الحل الأفضل لكليهما، فغاب لن يعثر على شخص يوازيه كفاءة، ليحل محله.

قررت اندريا أن تسعى جهدها، خلال فترة نقاهتها، لتطرد غاب من

دائرة تفكيرها وإلى الأبد. إنها الطريقة الوحيدة لتقي نفسها من الأذى، مع أنها تعي تماماً بأن ذكراه ستطاردها على الدوام.

بعد مضي سبع ساعات، كانت سيارة الليموزين العائدة لفرع شركة غاب في باريس تقلهما من مطار ديغول إلى منطقة في الضواحي تعرف باسم شامبيني. وسرعان ما وجدت أندريا السيارة تطفو فوق مياه نهر المارن، محمولة على جسر خشبي، يعمل بواسطة شد الحبال. وسمعت غاب يقول لها موضحاً إنهما سيقيمان في إحدى الجزر.

كانت أندريا تظن أنهما سينزلان في أحد الفنادق الراقية المفضلة لدى الأثرياء، ولم تتوقع أبداً أن يصطحبها إلى بقعة نائية، تتمتع بسحر العالم القديم. فأحست في داخلها بشيء من البهجة، وراحت تتأمل من حولها الأشجار المكسوة بالأوراق، وأزهار حزيران الوفيرة التي تحد ضفتي النهر، حيث جلس الصيادون يصطادون السمك، معتمرين قبعات تقيهم من أشعة الشمس، فشعرت بنفسها مأخوذة بهذا العالم المختلف والبعيد كل البعد عن نيويورك وضوضائها.

ذكّرها المشهد الممتد تحت ناظريها بلوحة لرينوار تحبها كثيراً، تصوّر مجموعة من المزارعين جالسين حول طاولة مستديرة. وتخيلت بواب فندق «الصياد العجوز»، الذي استقبلها بابتسامة عريضة في البهو الصغير القديم الطراز، واحداً منهم.

كان الفندق يتألف من طابقين لا يتسعان، حسب ظن أندريا، لأكثر من ست غرف للضيوف.

ـ مساء الخير سيدتي، سيدي.

ـ مساء الخير.

وضع غاب حقائبهما على الأرض وهو يقول: «أدعى غابريال كوربن. أظنك حجزت لنا غرفتين، أليس كذلك؟».

ـ نعم، نعم، هلا ملأت الاستمارة؟

طرفت أندريا بعينيها فيما كان غاب يدون المعلومات المطلوبة، لم تعلم من قبل بأنه يتكلم الفرنسية بهذه الطلاقة، وكأنه واحد من سكان البلد الأصليين، مع أن قسماته الداكنة الجذابة توحي بأن والديه من أصل فرنسي.

بعد تسلّم المفاتيح، حمل غاب الحقائب وصعدا معاً السلم الدائري الضيق، وصولاً إلى الطابق العلوي. وقف أمام الباب الأول إلى اليسار ثم فتحه، فأطلقت أندريا صرخة دهشة. كانت الغرفة تضم سريرين صغيرين عليهما غطاءان أخضران. وضعت إلى جانبهما منضدة وخزانة تعودان إلى القرن التاسع عشر. وعلقت فوق النافذة الصغيرة التي تتوسط الغرفة، والتي تطل على الشارع الهادىء، ستائر قطنية مخططة باللونين الأبيض والأخضر، فيما كسيت الجدران بورق مطبع بأزهار الزنبق الصغيرة، أضفى على الغرفة المزيد من السحر.

لم تر أندريا أثراً لجهاز تلفزيون أو هاتف. هذه هي فرنسا، إنها شريحة من قالب الحياة. كما كان ليقول أستاذها في كلية الفنون.

ـ أحببت الغرفة كثيراً.

ـ توقعت ذلك. تجدين حماماً مشتركاً في آخر الرواق.

التفت أندريا نحوه، فرأت شفتيه ترتعشان. وأحست بنبضات قلبها تتسارع أمام جاذبيته الطاغية.

ـ سأنزل في الغرفة المجاورة، إلى الجهة اليمنى. يمكنك موافاتي إلى البهو بعد عشر دقائق لنتمشى قليلاً قبل العشاء. أريد أن أمرّن رجليّ قليلاً، ولا أظنك تمانعين من القيام بذلك أنت أيضاً.

ـ هل سينضم إميل والباقون إلينا لاحقاً؟

ـ لن يفعلوا هذا المساء.

خرج من الغرفة وأقفل الباب خلفه، تاركاً أندريا في حيرة من أمرها. بدا موقفه غريباً، ولكنه بدا لها متعباً ولا يرغب بمقابلة أحد أو الاختلاط بالناس. في مطلق الأحوال، إنها تشعر بالسرور لوجودها في باريس، ولا مانع لديها من إرجاء العمل إلى الغد.

بعد خروجه من غرفتها أسرعت إلى النافذة، وأطلّت منها، لتلقي نظرة على مملكتها الجديدة. في ذلك الوقت، بدأ نور النهار يتلاشى شيئاً فشيئاً، متيحاً الفرصة لظلمة الليل لتسدل ستارها على المكان. إلا أنها تمكنت من رؤية بعض المارة، الذين لم يوحوا إليها بأنهم من السواح، ولفت انتباهها شاب في مقتبل العمر، يقود دراجة هوائية، ويضع في السلة بضع أرغفة من الخبز، ما إن نظرت إليه أندريا حتى راح يصفر بإعجاب. ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام، قبل أن تبتعد عن النافذة، وتتوجه إلى الحمام لتغتسل قليلاً.

سوّت أندريا تنورتها الكتانية القشدية اللون، التي تجعدت خلال الرحلة، وقميصها القطني ذا اللون الناري المثير، ثم أخذت مشطاً من حقيبتها ومشطت شعرها. لحسن الحظ أنها جلبت معها صندالاً جلدياً مريحاً لتتمكن من التنزه في الجوار من دون أن تتذمر.

لم تكد قدماها تطآن أرض البهو، حتى سمعت صوتاً ذكرياً يقول لها بلكنة فرنسية ثقيلة: «كنت أتضرع إلى الله لتنزل المرأة الأميركية الجميلة سريعاً».

وضع الشاب الذي شاهدته منذ دقائق قليلة دراجته الهوائية خلف مكتب الاستقبال الأمامي، فبدا لها في أوائل عقده الثاني. وملامحه تشبه ملامح البواب الذي استقبلهما عند وصولهما. ولم تر أي أثر لـ غاب في البهو، فقالت له:

ـ سأنصح صديقاتي بالنزول في هذا الفندق، عند زيارتهن باريس، إن أردنّ اللهو قليلاً!

ابتسم لها الشاب ابتسامة عريضة: «لا أظنك تشاطرين صديقك الغرفة عينها، فما رأيك لو تخرجين برفقتي هذا المساء؟ أعدك بأن تقضي وقتاً ممتعاً، أدعى بيار!».

ضحكت أندريا ضحكة خافتة: «إنه عرض مغرٍ يا بيار، ولكنني هنا في رحلة عمل».

تركزت عيناه الناعستان على وجهها: «هل أنت موظفة عنده أم هو موظف عندك؟».

لا شك في أن بيار سيصاب بصدمة قوية حين يعرف حقيقة غاب: «إنه رب عملي».

ـ ما الذي يشكو منه هذا الرجل؟

ـ عفواً؟

ـ أحضرك معه إلى باريس ولا يشاطرك الغرفة نفسها، أليس الأمر غريباً؟

ـ لم يسألك أحد رأيك!

أجابه غاب بصوته الخفيض الفاتر، وكان قد نزل السلم من دون أن تلاحظ أندريا ذلك، مرتدياً قميصاً أسود حريرياً وسروالاً رمادياً. اعتاد غاب أن يرتدي البذلات الرسمية، ولكن هذا التغير الجذري أبرز رجولته، رجولة خطفت أنفاسها، على الرغم من العدائية التي ظهرت جلياً على قسمات وجهه، تجاه الشاب.

ـ لا أظن أنه سيء النية!

ثم أضافت هامسة: «هيا بنا!».

أحست أندريا بصلابة جسده، حتى قبل أن يلف خصرها بذراعه ويقودها إلى خارج الفندق، فأضرمت حرارة لمسته نيران الشوق فيها.

ولم تلبث أن انفرجت أساريره، وهما يتنزهان تحت الأشجار الشاهقة ويتبادلان الأحاديث. وحاولت أندريا أن تتفادى ملامسته. فكل لمسة من ذراعه أو ساقه كانت ترسل في أوصالها ذبذبات كهربائية. وكم أحست بالارتياح حين أبطل غاب مفعول السحر، وتوقف ليتحدث مع أحد الصيادين عند منعطف النهر.

يبدو أن الحظ لم يحالف الصياد العجوز طوال النهار، ولكن كلام رب عملها جعل عينيه تومضان، فأخذ من سلة العدة طعماً مختلفاً، وعلقه عند طرف خيط صنارته، ثم رماها في النهر. ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر بثقل فيها، فسحبها ليجد عند طرفها سمكةً كبيرة الحجم. ابتسم الرجل لـغاب ابتسامة عريضة وربت على كتفه معبراً عن امتنانه له.

ـ ما نوع هذه السمكة؟

ـ إنها سمكة الشبوط.

ـ لم أتذوقها من قبل!

ـ الشبوط المدخن لذيذ جداً.

ـ أرى أنك مليء بالمفاجآت.

قالت أندريا له ذلك فيما بدآ يعودان أدراجهما. ثم تابعت تقول: «هل ولدت هنا، في فرنسا، لتعرف الطعم الملائم لاصطيادها؟».

نظر إليها بطرف عينه: «كلا، ولدت في سان بيار».

قطبت أندريا جبينها: «هل هي منطقة بلجيكية أم سويسرية؟».

ـ كلا. إنها مستعمرات فرنسية على سواحل «الأرض الجديدة».

ـ لم أقابل أحداً من سكان تلك الجزر، فأنت تتقن الإنكليزية جيداً،

ولا توحي بشيء أبداً.

ـ والدتي أميركية الأصل، وأنا أحمل الجنسيتين.

ـ أما زالت عائلتك تقيم هناك؟

أرادت أن تعرف كل شاردة وواردة عنه، غير أنها رأت في عينيه طيف حزن ما لبث أن تلاشى.

ـ أجل.

ـ ولمَ غادرت الجزيرة؟

ـ أردت أن أكتشف العالم.

ـ وانظر ما حل بك!

نطقت بهذه الكلمات من دون أن تفكر ملياً بها، ثم ابتسمت له وأضافت: «ولكن حبك لصيد السمك لا يزال راسخاً فيك».

أومأ غاب برأسه: «عملت في المجلس الفرنسي المختص بصيد الأسماك، واطلعت على المشاكل التي عانت منها منطقة المارن، بعد موسم الحصاد، السنة الفائتة».

أثار كلامه فضولها: «ما الذي حصل؟».

وعاودا السير من جديد: «جرفت أمطار أيلول الغزيرة بقايا التفاح والعنب إلى النهر، ما تسبب بموت الكثير من الأسماك، وتطلب الأمر بذل جهود حثيثة لإزالة الأسماك الميتة عن ضفتي النهر. يسعدني أن يتمكن العجوز من اصطياد شيء ما هنا».

ـ ما هو دورك في المجلس؟.

ـ أعمل على حل النزاعات ما بين فرنسا وكندا حول الحدود البحرية المخصصة لصيد الأسماك.

يا إلهي إنه عمل مضن ويتطلب تفرغاً كاملاً. وحده الرجل الذي يتمتع

www.elromancia.com

مثله، بمؤهلات استثنائية يستطيع القيام به، وإدارة شركة تساوي مليار دولار، في آن معاً.

ـ هل يواجه صيد الأسماك مشاكل في الجزيرة؟

رماها بنظرة حادة: «إن كنت تصرين على معرفة الرد، عليك الانتظار حتى ننهي العشاء».

ثم وضع ذراعه حول كتفيها، وقادها نحو مقهى مجاور للفندق. بدا لها أن المكان يليق بالعشاق بكراسيه الصغيرة وطاولاته المستديرة التي فرشت عليها أغطية باللونين الأبيض والأحمر. ورأت أندريا بعض الأزواج يرقصون، على وقع لحن عاطفي قديم يعزفه عازف أكورديون، يتجول بين رواد المطعم. جلسا إلى طاولة منعزلة، فأسرع النادل نحوهما حاملاً كوبين من العصير المحلّي. ولم يلبث أن لحق به نادل آخر، جلب لهما الخبز الساخن.

ـ لا يقدمون في هذا المطعم إلا نوعاً واحداً من المقبلات، لذا فهم لا يعتمدون قائمة طعام.

قال لها غاب ذلك موضحاً، بعد انصراف النادلين. ثم تابع يقول: «أؤكد لك أن مذاق طبق بلح البحر المقلي، الذي يشتهر به هذا المطعم، لا يضاهى».

أقرت أندريا في سرها بأن حياتها بقيت خالية من كل طعم أو لون إلى أن دخلت أرض الأحلام هذه، متأبطة ذراع غاب. وخشيت أن تكون نائمة ومستغرقة في أحلام وردية، قد تستيقظ منها في أي لحظة.

٢ ـ الخيار الصعب

فيما كانا يحتسيان العصير ويأكلان الخبز الشهي، راحت أندريا تختلس النظر إلى غاب. أبرز نور الشمعة المتراقص لون عينيه المذهلتين، هاتين العينين اللتين طالما خيل إليها أنهما رماديتان داكنتان، إلا أن إطار حدقتيهما بدا فضياً هذا المساء. أقرت في سرها بأنها لم تقابل في حياتها رجلاً يضاهيه جاذبية، بشعره الأسود المجعد، وذقنه غير الحليقة.

ـ هنيئاً!

قال النادل لهما ذلك وهو يضع أمامهما طبقين صغيرين من البطاطا المقلية، وطبقاً كبيراً من بلح البحر الساخن. فتقابلت نظراتهما وداعبت الرائحة الزكية أنفها. وما إن قضمت القضمة الأولى حتى باتت عاجزة عن ردع نفسها عن الأكل.

ـ اعتادت جدتي أن تطهوها بالطريقة عينها، وكنت أتنافس مع اخوتي لنرى من منا يستطيع أن يأكل أكبر عدد منها.

ضحكت أندريا ضحكة خافتة، وتمنت في سرها لو أنها رأت هذا المشهد. ثم وضعت شوكتها جانباً بعد أن أكلت حتى التخمة، وسألته: «متى توفيت جدتك؟».

ـ منذ سنتين.

ـ آسفة!

لعل أسئلتها لا تروق له، ولكنها كانت متلهفة لسماع الأجوبة التي لن

تجدها عند أحد سواه.

ـ هل عائلتك كبيرة؟

ـ إنني الابن الثاني بين أربعة صبية.. اثنان منهم توأمان.

ـ توأمان! كم أنت محظوظ! فأنا ابنة وحيدة!

ـ تزوجوا جميعهم، وحسب الإحصاء الأخير، أصبح لديّ سبعة أبناء وبنات أخوة، بالإضافة إلى والدي جيل وجدي جاك، وعمتان متزوجتان ولديهما أولاد وأحفاد.

ولم يأتِ غاب على ذكر والدته...

ـ إنهم يقيمون جميعاً في الحي عينه في سان بيار ويكسبون رزقهم من العمل في البحر، يقال إن كوربن الأول جاء من بريتاني، وكان يصطاد السمك في هذه المياه، حيث توقف جاك كارتيه في طريق عودته من فرنسا، منتصف العام ١٥٠٠.

ـ ماذا عن عائلة والدتك؟

ـ يقيم معظم أقاربها في شيكاغو.

ـ كيف التقى والداك؟

ـ كانت والدتي عائدة إلى ديارها، بعد رحلة إلى أوروبا، غير أن طائرتها اضطرت إلى تغيير وجهتها والهبوط في هاليفاكس. فوجدت أمي نفسها محتجزة مع أبي في المطار لمدة أسبوع بأكمله، بسبب عاصفة هوجاء ضربت الأطلسي. وتسارعت الأمور بعدئذٍ واصطحبها إلى منزله لتقابل عائلته، ثم تزوجا وأنجبا الأطفال. إلا أنهما تطلقا بعد بلوغي الثامنة عشرة.

لم تكن أندريا تتوقع ذلك، فأحست بالألم يعتصر فؤادها. لا بد أن طلاق والديه سبب له اضطراباً عاطفياً عنيفاً، فدفعه الغضب والألم

المتأججين في صدره ليبني امبراطورية خاصة به.

فلو أنه لم يسلك هذا الدرب، لما رأت شركة كوربن النور، ولما قدر لهما أن يلتقيا. وشعرت الغثيان لمجرد تفكيرها في الأمر.

ـ ولكننا تمكنا من البقاء على قيد الحياة يا أندريا. وعلى الرغم من أن والدتي لم تفصح لنا عن أسباب الطلاق، بقيت مقرباً منها، وغالباً ما نلتقي. إنها تعمل في شركة للطيران، وتسافر إلى سان بيار، مرة كل شهر لتزور أشقائي.

أحست أندريا بنفسها وكأنها عائمة، وقد اختلط في داخلها تأثير قربه منها بتأثير الطعام الشهي الذي تناولاه.

ـ كنت تحدثني عن المشاكل التي تواجهها جزيرتك!

ـ سأخبرك بها لاحقاً!

وأضاف هامساً: «أريد الآن أن أرقص معك!».

أخذ قلبها يخفق بشدة، وهو يمسك بيدها ويأخذها بين ذراعيه. مع أنها سمعت أغنية «الحياة حلوة» مرات عديدة من قبل، ولكنها لم ترقص يوماً على وقع موسيقى حية يعزفها عازف أكورديون فرنسي أصيل. وأسرعت تدفن رأسها في فجوة كتفه.

ـ هل أنت سعيدة يا أندريا؟

أثار سؤاله جنونها. هل تعترف له بأنه أدخلها الجنة من أبوابها الواسعة؟

ـ إنني أعيش تجربة لا تُنسى. والفضل كله يعود إليك.

وإذا بغاب يفاجئها بعناق بدا طبيعياً للغاية، فاستجابت له بشكل عفوي. وبينما كانا يدوران في وسط حلبة الرقص، ازداد عناقهما عمقاً، حتى بات يشكل جزءً من سحر تلك الأمسية. وتلاحقت الأغنيات، وتلاحقت المعانقات. ولم تعد أندريا قادرة على تحديدالوقت الذي مر

عليهما ووهما متلاصقان، تجمعهما حالة من النشوة العارمة.

أحست أندريا بموجة من الحرارة تجتاحها، لفقدانها السيطرة على نفسها. فابتعدت عنه فجأة، وتوجهت نحو الطاولة وهي تترنح في مشيتها.

وما هي إلا لحظات حتى حملت حقيبة يدها، وغادرت المقهى متوجهة إلى الفندق تاركة غاب وراءها.

لحق بها غاب على السلم. وإذ شعرت به خلفها، صعدت الدرجات الأخيرة على عجل.

ـ لِمَ العجلة؟

أمسك بها بعد أن أصبحت أمام باب غرفتها حيث وقفت لاهثة تلتقط أنفاسها: «جرفتني الحماسة على حلبة الرقص، وأظن أن موعد نومي قد فات».

تردد صدى ضحكته الخافتة في داخلها: «كان حري بي أن أصطحبك إلى باريس منذ فترة بعيدة. إنه لمن الممتع حقاً أن أرى ردة فعلك الأولى حيالها».

ـ إنني عاجزة عن التعبير عن مدى امتناني لك لاصطحابي إلى هنا. لن أنسى هذه الرحلة أبداً.

عاد صوتها يرتجف من جديد: «عمت مساء».

ثم وضعت المفتاح في القفل وفتحت الباب.

ـ أندريا!

قفز قلبها بين ضلوعها: «نعم؟».

ـ أشكرك على الذكريات الجميلة التي تركتها لي. سأمر لاصطحابك عند الثامنة والنصف صباحاً، لنشن غارة على محل الحلوى المجاور.

ثم أضاف هامساً: «نوماً هنيئاً!».

وانصرف تاركاً أندريا في حيرة من أمرها، وهي تدرك أنه لن يغمض لها جفن. فبفضله كانت أمسيتها ساحرة.

حملت أندريا أغراضها وهرعت إلى الحمام لتغتسل وتبدل ملابسها قبل أن تخلد إلى الفراش، ولكنها كانت واثقة من أنها ستقضي ساعات الليل تحيي في ذهنها كل لحظة جميلة قضتها برفقته!

على الرغم من جسدها المنهك، استيقظت أندريا، صباح اليوم التالي، عند الساعة السادسة والنصف، كالعادة. ولكنها لم تشأ أن تبقى مستلقية في سريرها، ترقب بلهفة وصول غاب. ارتدت ملابسها، ومشطت شعرها، ووضعت القليل من الزينة على وجهها، ثم وضبت حقيبتها وحملتها إلى الطابق السفلي. عند وصولها إلى البهو، رأت امرأة خلف مكتب الاستقبال، فأدركت في الحال أنها والدة بيار. حيتها المرأة العجوز مبتسمة، فردت أندريا التحية بتهذيب: «صباح الخير».

ـ السيد كوربن في المتجر المجاور يتناول فطوره.

أيعقل أن يستيقظ غاب في ساعة مبكرة كهذه؟

ـ يمكنك أن تتركي حقيبتك هنا إن أردت اللحاق به.

ـ شكراً لك.

وبعد أن وضعت المرأة حقيبتها خلف مكتب الاستقبال، خرجت أندريا من الفندق، فوجدت دثاراً من السحب يحجب السماء. ورأت أمام متجر الحلوى، بضع طاولات وكراسي، وقد جلس غاب على إحداها يغمس كعكة محلاة في القهوة ويأكلها. كان يقرأ صحيفة فيغارو، وقد أحاطت به هالة رجولية تخطف الأنفاس وهو يرتدي سروالاً ضيقاً من الجينز وقميصاً خمرياً وحذاءً رياضياً.

لم تتوقع أندريا منه أن يختار ملابس مماثلة خلال العمل، ولكن المقاييس كلها انقلبت عقب الحديث الذي دار بينهما صباح أمس، حيث

تبيّن لها أن من الصعب التنبؤ بتصرفات هذا الرجل، إلا أن ذلك يزيد من قوة جاذبيته.

اقتربت أندريا منه، فرفع عينيه نحوها ورماها بنظرة خاطفة، ولكن نظرته بدت ثاقبة فأحست بوهن مفاجىء في أوصالها. نهض غاب من مكانه برشاقة ليساعدها على الجلوس وهو يقول: «لم أستطع النوم طويلاً أيضاً».

قال لها ذلك متمتماً، قبل أن يرفع يده عن ذراعها. إلا أنها بقيت تشعر بآثار أصابعه عليها، حتى بعد أن عاد وجلس مكانه.

ـ لا بأس، إنني واثقة من أن إميل يريد البدء في أقرب وقت ممكن. فإن أسرعنا في انجاز الأعمال، لن يضطر فريق عمله للعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع.

صب لها غاب فنجاناً من القهوة من دون أن يعلق على كلامها. فأحست وكأنه كان يتوقع حضورها بين لحظة وأخرى. فعلى خلاف تصرفاته، كانت تصرفاتها قابلة للتنبؤ بها، تماماً مثل شروق الشمس صباح كل يوم. وخشيت أن يصبح افتتانها به واضحاً للعيان، بعد ما حصل بينهما ليلة أمس.

أحضرت صاحبة المتجر طبقاً من الكعك المحلى الذهبي اللون، فقال لها: «تذوقي واحدة، إنها محشوة بالسبانخ والجبنة البيضاء».

بدا غاب هادئاً جداً، فخيل إليها أنه نسي كل ما جرى بينهما البارحة. فسألته: «في أي ساعة يتوقع إميل وصولنا؟».

ـ إنه لا يتوقع وصولنا!

كادت أندريا تختنق بالقهوة: «لا أفهم».

وضع كوبه على الطاولة، ثم مال نحوها، وهو يحدق بها بعينين يلفهما الغموض. ثم قال: «أحضرتك إلى باريس لسبب واحد فقط».

لم تعهده مراوغاً إلى هذا الحد.

ـ إن كنت تريد اغوائي، فالفرصة كانت متاحة أمامك ليلة أمس.

قالت ذلك مازحة لأنها لا تملك أدنى فكرة عما يجول في رأسه، بصرف النظر عن مغزى حديثه هذا. إلا أنها لم تلمح على ثغره طيف ضحكة أو حتى ابتسامة.

ـ لم تصيبي الهدف آنسة بوير.

لم تسمعه يناديها بهذا الاسم، منذ اليوم الأول الذي قابلته فيه. ما جعل الحمرة تغزو خديها.

ـ أتظنني لا أعرف ذلك؟

ـ لم أطلب يد امرأة للزواج من قبل. وخطر لي أنه المكان المناسب.

ـ الزواج!

وانزلق الفنجان من يدها، فانسكبت القهوة على قميصها.

ـ آسفة... كم أنا خرقاء!

قالت ذلك متلعثمة وهي تمسح بقعة القهوة بالمنديل، وتقول: «أظن أنني أسأت فهم كلامك».

أمسك غاب يدها وشد عليها قائلاً: «أتقصدين بشأن طلبي الزواج منك؟!».

ـ لا بد أنك تمزح.

ـ لست معتاداً على المزاح.

هذا ما تعرفه عنه أندريا، فهو من النوع الجدي، المقطب الجبين، الذي يعمل بجهد بالغ ويتوقع من الأشخاص المحيطين به أن يكونوا كذلك. لكنها غالباً ما كانت تلمح في عينيه طيف كآبة مبهمة، تمزق أوتار قلبها، وخيل إليها بعد الحديث الذي دار بينهما ليلة أمس، أنها أدركت جزءً

من أسبابها.

قالت أندريا هامسة، بعد أن بذلت جهداً بالغاً لتستعيد صوتها: «لا يمكنك أن تتزوج بامرأة إن لم تكن مغرماً بها».

ـ ولكن الإعجاب متبادل بيننا. ألا يقال إن الاعجاب أفضل من الحب الذي لا يجلب إلا العذاب والشقاء؟

لا شك أن سؤال غاب المتكلف هو خير دليل على الاضطراب النفسي الذي عانى منه بعد طلاق والديه.

ـ لا يمكنك أن تنكري أن علاقة العمل التي تربطنا ممتازة، وبأن كلاً منّا يعرف الآخر حق المعرفة. وبما أننا لم نختلف يوماً، أظن أننا سننسجم عاطفياً.

راح يداعب راحة يدها بإبهامه مرسلاً سهاماً منبهة إلى أنحاء جسمها كله!

ـ أنت مجنون!

وانتزعت يدها من بين يديه، وكأن حية لسعتها، وقالت له متعالية على وجعها: «خلال فترة عملي معك، اكتشفت بأن غاب كورين لا يقدم على أي خطوة إلا بعد أن يتأكد من أنها تشكل جزءً من مخطط شامل».

أرجع ظهره إلى الخلف: «هذا صحيح!».

حدقت به بعينين ملؤهما الصراحة: «ما هو السبب الحقيقي الذي جعلك تختارني عروساً لك، مع أن الحب لا يجمع قلبينا؟».

أجابها بعد أن أخضعها لتقييم حميم: «لن أسمح لك بأن تضيعي فرصة إنجاب طفل من لحمك ودمك. سنضع هذه المسألة على رأس قائمة أولوياتنا!».

ها هما يعودان بالحديث إلى مشكلتها، فقالت له هازئة: «تريد أن

نتزوج كي تمنحني فرصة إنجاب طفل!!».

ـ أجل. ولهذا السبب، علينا أن نتزوج في الحال.

هبت واقفة من مكانها وأسندت قبضتيها إلى حافة الطاولة قائلة: «ما الذي يجري هنا؟ ولا تقل لي إنك تريد القيام بذلك بدافع من طيبة قلبك. ما الذي يدور في رأسك؟».

اكفهر وجه غاب، وكأنما ارتسمت عليه سنوات عمره الست والثلاثون مرة واحدة ثم أجابها بصوت أجش: «أريد التكفير عن ذنوبي».

ـ أي ذنوب؟

ـ بعد مغادرتي سان بيار للالتحاق بالجامعة، أتت لزيارتي في شقتي في نيويورك فتاة من الجزيرة تدعى جان ـ ماري.

كانت أندريا تدرك أنه يحتفظ بذكرى فتاة ما، عرفها في جزيرته، في الماضي.

ـ قالت لي إن رحيلي سبب لها الحزن، وأعربت عن رغبتها بالزواج بي.

لا أحد يستطيع أن يفهم معنى الوقوع في حب غاب مثل أندريا، ويبدو أن الفتاة المسحوقة القلب لم تقوَ على احتمال رحيله عنها.

ـ وجدت كلامها سخيفاً، إذ لم تكن بيننا مشاعر متبادلة، ومن الصعب أن يجمعنا المستقبل تحت سقف واحد. صحيح أنني لست فخوراً بقضائي ليلة كاملة معها، ولكنني لم أكن أفكر بالزواج بها أو بأي امرأة سواها مطلقاً، فطلبت منها العودة إلى سان بيار. وبعد مضي فترة من الزمن، اتصل والدي بي ليعلمني أنها ستتزوج من أخي ايف.

بدأت الصورة تنجلي أمام ناظري أندريا؛ وجدت جان ماري غاب صعب المنال، فاختارت شخصاً مقرباً منه.

- شعرت بالذنب لأنني أغويت الفتاة التي يحبها أخي والتي ينوي الزواج بها! ووجدت أنه يستحق أن يعرف حقيقة علاقتي بجان ماري قبل فوات الأوان. فقررت السفر إلى الجزيرة لأتحدث إليه، ولكن والدي أخبرني أمراً بدل مجرى حياتي.

أنبأها حسها الداخلي بالنقطة التي سيبلغها حديثه، فأغمضت عينيها وأسندت ظهرها إلى الكرسي.

- قال لي إنها أجهضت الطفل الذي كانت تحمله، طفل ظن الآخرون أنه من ايف، ولكن والدي كان يعرف جيداً من هو والد الجنين، واقترح علي ألا أعود أبداً من أجل سعادة ايف.

أحست بالألم يمزق أحشاءها: «أتقصد القول إنك لم ترجع إلى ديارك منذاك الحين؟».

غدت عيناه داكنتي اللون بسبب الانفعال، فاختفى اللون الفضي منهما.

- عدت يوم توفيت جدتي، ولكنني انتظرت هبوط الليل لأزور قبرها. وجدت جدي قابعاً لوحده.. فجلست أسامره حتى طلوع الفجر، ثم غادرت الجزيرة.

هزت أندريا رأسها، وقد أثارت فكرة نبذ عائلته له، طوال هذه السنوات، ذعرها: «لمَ لم تخبرك جان ماري بأنها حامل، حين أتت لزيارتك؟».

كان صوتها يرتعش..

- أظنها فضلت ألا تخبرني بذلك بعد أن قلت لها إنني لا أكن لها أية مشاعر.

جاءت نبرة صوتها مفعمة بالعاطفة وهي تقول: «ولكنه طفلك، ومن حقك أن تعلم!».

ضم غاب يديه القويتين إلى صدره: «أوافقك الرأي.. ولكن لا بد أنني بدوت يومها شاباً طائشاً، فلم تشأ جان ماري أن تورطني بالأمر».

- إنني في غاية الأسف يا غاب.

وتمنت لو أنها تجد كلمات أفضل لتعبر له من خلالها، عن مشاعرها، ثم تابعت تقول: «ولكن كيف سيساعدك الزواج بي على التكفير عن ذنوبك؟».

أخذ نفساً عميقاً: «لم تعاني مثلي من إحساس بالذنب. فجان - ماري كانت تحتاج إلى مساعدتي، ولكنني رفضت أن أمد لها يدي».

شعرت بأن قلبها يتوق توقاً موجعاً إليه، فقالت تخفف عنه: «إنك تلوم نفسك على شيء لم يكن بوسعك تصحيحه من دون أن تطلع على كافة الوقائع».

هز رأسه: «لم يعد للأمر أهمية الآن، فما حصل قد حصل ولم يكن أمامي من سبيل للتعويض. ولكن حين أتيت لمقابلتي صباح أمس، شعرت بيأسك، وأدركت أنني قادر على انتشالك من محنتك قبل فوات الأوان، علّ ذلك يعوضني ما فاتني في الماضي من التحلّي بمشاعر إنسانية».

أشاحت أندريا بوجهها عنه.

- تأثرت كثيراً بنزاهتك، فعلى الرغم من المأزق الحرج الذي وجدت نفسك فيه، أبيت استغلال حب بريت لك، ورغبته الواضحة بالزواج بك، وهي خطوة لم أكن مستعداً أبداً للقيام بها مع جان ماري.

وتوقف قليلاً عن الكلام، ثم استطرد يقول: «أظن أن زواجنا سينجح، بعد أن كشفنا أوراقنا كلها، ولم يعد أمامنا سوى أن نتضرع إلى الله أن يرزقنا طفلاً، وهكذا لن تحرمي أنت من أمومتك، وأستطيع أنا الحصول على طفل يعوضني ذلك الطفل الذي فقدته بسبب جهلي وطيشي».

رفعت أندريا عينيها نحوه، فرأت في عينيه حدة لم ترها من قبل. كان ظنها في محله، فغاب يريد طفلاً يعوضه عن الطفل الذي نقل له والده خبر فقدانه.

أحست بتقلص في معدتها، لاخفائها عنه سر حبها له، ولكن كيف يسعها أن تفضح نفسها أمامه، وهو لم يطلب حبها، كما لم يطلب حب جان ماري من قبلها؟

- إنني بعيدة عن الكمال يا غاب.

هز منكبيه العريضين دون مبالاة، مثيراً انتباهها إلى حركة عضلاته القوية من تحت قميصه القطني: «سنبني علاقتنا على الصراحة وليس على الكمال، أود أن نتزوج في الحال، لتتمكني من الحمل في أسرع وقت ممكن».

اشتعلت نيران الغضب في داخلها، وهي تسمعه يتطرق إلى موضوع بقدسية الزواج، بهذه البرودة.

- ماذا لو لم أتمكن من الحمل؟

- سنفكر في الأمر في حينه.

- أتقصد أننا قد نتطلق؟

تردد قليلاً ثم أجابها: «فقط إن أراد كلانا ذلك».

لا شك أن غاب كوربن بالغ الدهاء، وسيجد حتماً مهرباً له.

- بقي شرط واحد عليك أن تقبلي به، لأصبح والد طفلك، فتنعمان معاً بممتلكاتي الدنيوية كلها طوال حياتكما!

- على الرغم من احترامي الشديد لأسلوبك الشريف في كسب المال، بعرق جبينك. أرفض أن أضع يدي على ثروتك، لأنها مسؤولية كبيرة ومخيفة.

- إنني أعي ذلك! ألا تريدين أن تعرفي ما هو شرطي؟

ارتعشت أندريا. حين بدأت تواعد بريت، قال لها إن غاب يخفي جانباً قاسياً في شخصيته، جانب لعب الدور الابرز خلال ارتقائه سلم النجاح والثروة.

سخرت أندريا يومها من كلامه هذا، لأنها لم ترَ هذه السمة فيه قط. فعلى الرغم من تحفظه الدائم، كان غاب محط احترام وتقدير جميع العاملين في الشركة، إذ كان يعاملهم بعدل، مظهراً اهتماماً كبيراً بهم. ولكن منذ وصولها إلى باريس، وهي ترى جوانب من شخصيته لم تعهدها من قبل.

في الواقع، أصاب أندريا الذعر، وأحست بأن شجاعتها ستخونها، على الرغم من إدراكها أنه عاجز عن حبها أو حب أي امرأة سواها.

- غاب..

- سأعود إلى سان بيار.

طرفت أندريا بعينيها: «أتقصد القول إنك تريد اصطحابي معك في زيارة إلى الجزيرة؟».

- كلا.. بل سأعود بشكل نهائي، فقد بلغ ولدا ايف و جان ماري سن المراهقة، ولم أعد أشكل خطراً على زواجهما. لقد اشتقت إلى البحر، وإلى دياري.

- ولكن شركتك!

- سأبيعها وأنشىء صندوقاً مخصصاً لإنعاش الجزيرة، التي عانت من أزمة اقتصادية على مدى سنوات طويلة.

سيتخلى عن شركة تساوي مليار دولار بهذه السهولة!

- متى اتخذت هذا القرار؟

ـ منذ زمن بعيد، فبعد أن رفضت عائلتي مساعداتي المادية، كان علي أن أجد سبيلاً آخر للقيام بذلك. في الواقع، لم تغب فكرة العودة عن بالي يوماً، وبقيت على اتصال مع جدي، ولكنه أصيب بانهيار عصبي بعد وفاة جدتي.. وتدهورت صحته في الآونة الأخيرة بعد وفاة صديق طفولته، وجاره غوركا زوبلديا. منذ مدة علمت أن أرملة هذا الأخير تنوي مغادرة الجزيرة، والانتقال للعيش في البيرينيه مع ابنها.

ـ لم تكن اذن الابن الوحيد الذي غادر الجزيرة.

رماها بنظرة ثاقبة: «كلا.. عندما أبلغني جدي الخبر قمت بشراء منزل زوبلديا من دون معرفة جدي بالأمر».

ارتعشت شفتاه، ووجدت أندريا صعوبة في إشاحة وجهها عنه.

ـ سنقيم في منزل جدي، إلى أن يصبح المنزل خالياً. آمل أن ترفع عودتي من معنوياته، ليستمتع بسنوات عمره المتبقية. فآل كورين يعمرون طويلاً، وهو لم يتجاوز بعد الحادية والثمانين.

حدّقت أندريا به لبعض الوقت وقد بدا لها بوضوح أنه فكر في كافة التفاصيل، فأحست بأن الأمور تسير بخطى سريعة جداً.

ـ لا أظنه على علم بعودتك، أليس كذلك؟

ـ كلا، ولكن يوم غادرت سان بيار، قال لي جداي إن أبواب منزلهما لن تقفل في وجهي أبداً، خصوصاً وأن لي فيه ذكريات رائعة، إلا أنه عالم منعزل يا أندريا، وقاسٍ جداً من بعض النواحي، ومن البديهي أن أعين وصياً على حصتك وحصة ابني من الميراث، إذا ما أصابني مكروه. وإن أردت التحدث عن الصورة بالإجمال، فالضباب يلف الجزيرة، وشتاؤها قارس لا ينتهي. ونادراً ما ينجح الغرباء عن الجزيرة، في التأقلم مع هذا المجتمع، الذي لا يهتم أفراده إلا بشؤونهم الخاصة، ويكسبون رزقهم من العمل في البحر. ولكنه موطني.. وإن رزقني الله بطفل أصيباً كان أم فتاة،

أريده أن يترعرع بين أحضانه، كما ترعرع أبوه من قبله.

يا له من رجل استثنائي!

ـ وحدهما والدي وجدي يعرفان سبب امتناعي عن العودة إلى الجزيرة ثانية. فالجميع يخالني خائناً، غادر الجزيرة بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية فيها. لذا استاؤا أشد الاستياء من رفضي للحياة التي كتبت لي منذ ولادتي، واعتبروا تصرفي هذا بمثابة خطيئة. وأظن أن عائلتي ستضطهدك من خلال رفضها مقابلتك. إنني أخبرك ذلك، حتى لا تتفاجئي لاحقاً، إن وافقت على الزواج بي.

ثم تابع متمتماً: «أود أن أعرف جوابك هذا المساء. وخلال هذا الوقت، سنقوم بجولة سياحية في باريس».

لم يخطر على بالها قط أن يطلب أحدهم يدها للزواج بهذه الطريقة، التي لم يعرف أحد لها مثيل من قبل.

يا له من خيار صعب! فإما أن توافق على العيش معه في ظل ظروف لا تطاق أو بالأحرى مستحيلة، أو لا تراه ثانية. وفي كلتي الحالتين، ستذوقين مر العذاب يا أندريا! هذا ما فكرت به قبل أن تقول: «ثمة أمور كثيرة تشغل بالي، وعلي أن أفكر فيها، وأظن أن الجولة السياحية ستكون مضيعة للوقت».

ونهضت من مكانها مضيفة: «إن كنت لا تمانع، أفضل العودة اليوم إلى نيويورك».

ـ كما تشائين، سأطلب سيارة ليموزين، وأبلغ القبطان بأنك في طريقك إلى المطار.

عضت أندريا على شفتها: «ألن تأتي معي؟».

ـ كلا، تنتظرني بعض الأعمال العالقة في مجلس الصيد. يمكنني

العودة لاحقاً في طائرة سياحية.

ورفع رأسه مضيفاً: «لا تطيلي التفكير في الأمر لأن الوقت يداهمنا، وليس أمامنا إلا خمسة أشهر يمكنك الحمل خلالها».

وجدت أندريا صعوبة في تحمل صراحته القاسية. وتمنت من كل قلبها أن تسمع منه كذبة بيضاء، كأن يقول لها مثلاً «إنني معجب بك منذ زمن بعيد، ولكنني حسبتك مرتبطة ببريت».

صب لنفسه كوباً آخر من القهوة وقال: «سأتصل بك عند عودتي إلى نيويورك لأعرف ردك، أتمنى لك رحلة طيبة يا أندريا».

همست مجيبة: «أتمنى لك رحلة طيبة أيضاً».

ثم استدارت على عقبيها وقفلت راجعة إلى الفندق.

مرت ساعات الصباح الأولى كلمح البصر، إذ سرعان ما وصلت سيارة الليموزين إلى الفندق لتقلها إلى المطار. وبعد مضي ست ساعات، نزلت أندريا من طائرة غاب الخاصة، لتجد سائقه في انتظارها: «أهلاً بعودتك، آنسة بوير».

- صباح الخير يا بيني.

- قال لي السيد كوربن إنك لم تنالي قسطاً وافياً من النوم، بعد هذه الرحلة القصيرة. وطلب مني أن أقلك مباشرة إلى شقتك.

وساعدها على الصعود إلى السيارة، ثم انطلق متوجهاً إلى مانهاتن. كانت السماء صافية، لا تعكر صفوها الغيوم المتلبدة، على خلاف سماء شمباني. ولم تداعب أنفها رائحة العطر التي يعبق بها الهواء هناك، فأحست بأن الجو غريب عنها. بدا لها كل شيء غريب الآن وغاب ليس برفقتها، وإذا بموجة من الفراغ الرهيب تجتاحها وهي تفكر بأنها قد لا تراه ثانية.

- وصلنا، آنسة بوير.

قال لها بيني ذلك، بعد مضي عشرين دقيقة، فيما نزل من السيارة ليفتح لها الباب.

كانت أندريا غارقة في أفكارها، فلم تدرك أنهما توقفا أمام شقتها. نزلت من السيارة وأخذت منه حقيبتها، وهي تشكره على إيصالها إلى منزلها.

ما إن دخلت إلى شقتها الصغيرة الواقعة في الطابق الرابع، حتى هرعت إلى المطبخ لتستمع إلى الرسائل الصوتية المسجلة على المجيب الآلي.

لطالما سمعت أناساً يتحدثون عن بلوغهم نقطة تحول في حياتهم، بدلت مجراها كلياً. ولكنها لم تخل أبداً أن ذلك قد يحصل معها.

وبينما كانت تحاول أن تهدىء من اضطراب أفكارها المشوشة، رنّ جرس هاتفها الخليوي. فمدت يدها إلى حقيبة يدها لتخرجه منها. وتبين لها، من خلال الأرقام الظاهرة على الشاشة الصغيرة، أنه اتصال خارجي. فظنت أنها والدتها.

- آلو...

- يسرني أنك وصلت سالمة يا أندريا!

غاب! وتمسكت بحافة الطاولة كي لا تقع أرضاً من هول المفاجأة..

- كانت أمامك سبع ساعات للتفكير في عرضي، وأريد سماع ردك في الحال.

لم تتوقع أن يتصل بها غاب قبل المساء. فسألته مدمدمة: «أما زلت في باريس؟».

أحست بتردده قبل أن يجيبها قائلاً: «إنني في المطار. فإن وافقت على

الزواج بي، علي أن أنجز الاستعدادات اللازمة، وإلا فإنني سأسافر الآن إلى سان بيار».

حبست أندريا أنفاسها: «كم من الوقت ستبقى هناك؟».

ـ سأبقى بشكل نهائي.. حسبتك فهمت الأمر.

ـ ولكن..

قاطعها قائلاً:

ـ يبدو لي أنك اتخذت قرارك، ولكنني ظننت أن عرضي قد يسعدك ويمنحك فرصة أخيرة لتحملي طفلاً. في مطلق الأحوال أؤكد لك أنني أتفهم قرارك وأتمنى أن تنجح عمليتك وتتخلصي من أوجاعك، ولا داعي للقلق بشأن الأعمال في المكتب، لأنني سأتصل بسام بون واطلب منه أن يعيد تنظيم القسم كما يحلو له، ويمكنك أن تمري لدى كارني لتأخذي شيك تعويض نهاية الخدمة.

ـ مهلاً..

صرخت أندريا مذعورة!

ـ إن كنت مترددة بشأن التخلي عن العمل فذلك أفضل للشركة يا أندريا. يمكنك أن تأخذي اجازة مرضية لمدة ستة أسابيع، وبعدها.

ـ كلا!

جاء الآن دورها لتقاطعه.

ـ ماذا؟

راحت الدماء تجري حارة في عروقها!

ـ أسأت فهمي. أريد أن.. أحاول.. إنجاب طفل!

ـ هذا ما كنت أتوق لسماعه!

بدا عليه الرضى، وكأنه تمكن من احتكار سوق عالمية جديدة.

ـ عليك أن توافيني إلى مكتب كاتب العدل عند الساعة الثالثة، سيمر بيني لاصطحابك عند الثانية والنصف، إلى اللقاء يا أندريا.

وأقفل الخط قبل أن تتمكن من توديعه. رباه! ما الذي فعلته؟ كانت تسمع صوت والدتها يتردد في أذنيها، وهي تطرح عليها السؤال عينه!

وكلما أمعنت التفكير في الأمر، كلما زاد خوفها من الاتصال بوالديها. غاب ليس مغرماً بها، ومن الأفضل ألا يعرفا شيئاً الآن، ليتها تتخلف عن الموعد الذي ضربه لها غاب عند الثالثة.

www.elromancia.com

٣ ـ شوق تغسله الدموع

يقع منزل آل بوير الريفي في سكارسدال، ويشكل جزءاً من متجر طويل ضيق يشبه تلك الدكاكين الصغيرة المتواضعة في قلب الغابة السوداء، في المانيا.

ما إن دخل غاب ذلك العالم الساحر حتى سمع ساعة الوقواق تعلن الثانية عشرة ظهراً. تلفت حوله مبهوراً، فرأى طاولات مفروشة بكسارات جوز، وبيوت دمى صغيرة خشبية، من كل الأشكال والألوان. فيما وضعت زينة الميلاد وصناديق موسيقية وأباريق خزفية في ركن من أركان المتجر، وكدست أزياء باڤارية تقليدية في الركن الآخر.

بدا والد أندريا طويل القامة، أشقر الشعر، ذا لحية صغيرة. يرتدي سروالاً جلدياً قصيراً، ويقف عند أعلى السلم، وهو يعلق مغارة هرمية الشكل، أما والدتها فسمراء جذابة تقف خلف الصندوق، مرتدية زياً باڤارياً أزرق اللون.

بدا والدا أندريا في عقدهما الخامس. ويتمتعان بكامل عافيتهما، فلم يجد غاب مبرراً لاصرارها على حاجتهما لمساعدتها، بسبب تقدمهما في السن.

ورثت أندريا ملامحها عنهما، إلا أنها تشبه والدتها أكثر بعينيها الزرقاوين وخديها المتوردين، اللذين هما دليل عافية. فالله أنعم على نساء آل بوير بجمال طبيعي وبشرة خالية من العيوب ليريحهن من مشقة التبرج.

انتظر غاب إلى حين مغادرة الزبون الوحيد المتجر، ثم اقترب من الصندوق: رينات بوير؟

حدقت المرأة وكأنها تحاول أن تتذكر أين رأته من قبل وهي تجيبه:

ـ أنا غاب كوربن، رب عمل أندريا.

ما إن سمعت اسمه، حتى شحب لون وجهها وحلت نظرة القلق محل الابتسامة الودودة؛ ثم نادت زوجها صارخة: «كارل! تعال بسرعة، إنه السيد كوربن! يبدو أن مكروهاً أصاب ابنتك».

ـ ابنتكما بخير!

أسرع غاب يطمئنها، ثم استطرد يقول بعد أن انضم زوجها إليهما: «يؤسفني أن يخيل إليكما في لقائنا الأول معاً، أنني أحمل إليكما أخباراً سيئة، مع أن العكس صحيح».

بدأت علامات الارتياح تشق طريقها إلى قسمات وجه المرأة المذعورة، شيئاً فشيئاً.

ـ خلال وجودنا مؤخراً، في باريس، طلبت يد أندريا للزواج ووافقت. صحيح أنه كان ينبغي علي أن أزوركما أولاً لأطلب يدها، ولكن الظروف حالت دون ذلك.

حدقّ والدا أندريا ببعضهما البعض والريبة بادية في عيونهما. ثم أخذت والدتها المبادرة بالكلام قائلة: «أعذرني قليلاً. أريد أن أقفل باب المحل».

وبينما هرعت المرأة للقيام بذلك، بدأ زوجها يستفيق من صدمته، فمد يده مصافحاً غاب: «لم تكف ابنتي عن الحديث عنك خلال الأشهر الستة الماضية، ولكنها لم تلمح لنا يوماً إلى أن علاقتكما حميمة إلى هذا الحد».

إنه أفضل خبر سمعه غاب منذ فترة طويلة فأجابه قائلاً: «عندما رقيت

أندريا لأربعة أشهر خلت، قيل لي إنها مرتبطة ففضلت أن أنتظر إلى حين خلو الساحة من المنافسة لأقوم بخطوتي».

بدت الفرحة على وجه والدتها، لكنها على الرغم من ذلك سألته: «وأين هي الآن؟».

ـ أوصلها سائقي إلى شقتها.

ـ هذا غريب! تركت لها عدة رسائل صوتية، ولكنها لم تجب عليها.

بالطبع فابنتها كانت مشوشة الأفكار وهي تنتظر أن يتصل بها في أي لحظة ليسمع جوابها.

ـ اتفقنا على أن نلتقي في مكتب كاتب العدل عندالثالثة للتوقيع على رخصة الزواج، وأظن أن لديها أموراً كثيرة تريد إنجازها خلال هذا الوقت.

ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع يقول: «لم أخبر أندريا بمجيئي لزيارتكما، لأنني أود التحدث معكما عن المشكلة الصحية التي تعاني منها».

اتكأت رينات على زوجها وهي تتنهد بأسى: «يسرنا أنك على علم بالأمر».

قال كارل متمتماً: «ذاقت الأمرين بسبب ذلك».

ـ أعلم ذلك. ولكن أندريا لم تطلعني على حالتها إلا في الآونة الأخيرة، ولا أعتقد أننا سنجد متسعاً من الوقت للتحضير لحفل زفاف كبير، وبما أن الطبيب منحها ستة أشهر فقط لتخضع لعملية استئصال رحمها، علينا أن نستغل كل دقيقة متاحة أمامنا. لذا أفضل أن ننجز اجراءات الزواج اليوم بالذات، لو أنكما تشاركاننا فرحتنا.

حدّق والداها ببعضهما البعض مذهولين: «أبلغني صديقي القاضي ريفرز عن استعداده لاتمام مراسم الزفاف، وأكد لي أنه سيغض الطرف عن فترة الانتظار القانونية».

اغرورقت عينا رينات بالدموع: «كم هذا رائع ورومانسي!».

تأمل كارل غاب لبعض الوقت ثم قال: «ابنتنا فتاة عاقلة، وإذا وقع اختيارها عليك لتكون زوجاً لها، فلن نمانع».

وهتفت رينات وهي تهب لمعانقته: «أهلاً بك في العائلة يا غاب».

ـ شكراً لك.

شكرها بصوت خفيض، وقد أربكه قبولهما به من دون تردد، إيماناً منهما بابنتهما.

ـ هل أستطيع أن أطلب منكما خدمة أخرى؟

أجابته رينات وهي تمسح دموعها: «طبعاً».

ـ ما رأيكما أن نأتي أنا وأندريا بعد الزواج لقضاء أسبوع بكامله برفقتكما؟ أريد التعرف على والدي زوجتي عن كثب، وأظن أن أندريا ستطير فرحاً لدى سماعها هذا الاقتراح.

ـ إنه لمن دواعي سرورنا أن نستقبلكما هنا.

وأضاف كارل بصوت أجش: «هيا يا رينات لنستعد لحفل الزفاف».

ـ سأصطحبكما معي، وأخبركما في الطريق، عن خططنا المستقبلية، فلا بد أن تعلما أننا لن نقيم في نيويورك.

* * *

ـ آنسة بوير، إنني أنتظركم أمام المبنى.

ـ شكراً يا بيني، سأنزل في الحال.

من الجبن أن تجعل من سائقه الخاص رسولاً بينهما، ما عليها سوى أن توافيه إلى مكتب كاتب العدل وتقول له إنها عدلت عن الزواج به.

فغاب ليس مغرماً بها، صحيح أنها تتوق إلى انجاب طفل قبل فوات الأوان، ولكن زواجهما محكوم عليه بالاعدام، لا محالة، لأنه ليس مبنياً

على الحب المتبادل. أوليس من الظلم أن يترعرع الطفل في منزل لا يعشعش الحب في أركانه؟ هل نسي غاب ما حل بوالديه؟

عندما أنزلها بيني أمام مبنى البلدية عند الساعة الثالثة إلا خمس دقائق، كانت أندريا قد حفظت كل ما تريد أن تقول له وباتت مستعدة لمواجهته به. وجدت المكتب الخاص برخص الزواج في الطابق الأول بسهولة بفضل لافتات رسمت عليها سهام تحدد الاتجاه الصحيح. وفيما كانت تبحث عن غاب في الغرفة المكتظة بالناس، مرت أمام والديها، فتسمرت في مكانها، والتفتت نحوهما مصعوقة، وهي لا تصدق عينيها، إنهما والداها بشحمهما ولحمهما، يقفان مبتسمين وقد ارتديا أبهى حلة.

- أمي؟ أبي؟ ما الذي تفعلانه هنا؟

أخذتها والدتها بين ذراعيها: «تهانينا يا عزيزتي، غاب كوربن هو أكثر الرجال وسامة في العالم يا عزيزتي، إلى جانب والدك طبعاً».

كما عانقها والدها بدوره قائلاً: «إنني أثني على خيارك يا أندريا، فغاب كوربن من خيرة الرجال. قال لي إنه سينتقل للعيش في سان بيار والعمل مع أفراد عائلته، مما يعني أنه حدد أولوياته، وهذا الأمر يدعو للاعجاب، خاصة إذا صدر عن رجل ناجح مثله. هيا بنا».

- مهلاً، من المفترض أن نلتقي هنا للحصول على رخصة الزواج!.

أجابتها والدتها: «نعلم ذلك، ولكنه يود الزواج بك في الحال، بسبب وضعك الصحي. ولحسن الحظ أن صديقه القاضي ريفرز وافق على عقد الزواج من دون مماطلة. ولكن الرجل تأخر على المحكمة، وعلينا أن نسرع قليلاً. إنهما في انتظارك في الطابق العلوي».

قادها والداها إلى المصعد وهي مشوشة الذهن، لا تصدق بأنه اتصل بوالديها، فكادت تتعثر في مشيتها.

- ولكن الأمور تسير بسرعة كبيرة يا أمي.

- وقعت في حبه منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناك عليه يا عزيزتي، فلم يعد أي رجل آخر يثير اهتمامك.

- أعلم ذلك ولكن...

- لا داعي للشعور بالذنب تجاهنا، لأنك حرمتنا من حفل زفاف كبير.

حاولت والدتها أن تجعلها تصغي إلى صوت العقل، فأضافت قائلة: «إن قدر لك أن ترزقي بطفل من غاب، فيجب أن يتم ذلك خلال الأشهر الستة المقبلة. أنا لا ألومه أبداً على استعجاله، إذ من الممكن ألا يحصل الحمل على الفور، والوقت بدأ يداهمكما، وأظن أننا أعلنا لك صراحة عن رغبتنا الشديدة بأن نصبح جدين».

- ولكن، يا أمي.

لم يتسنَ لها أن تنهي جملتها إذ فتح باب المصعد ورأت غاب واقفاً بطوله الفارع أمامه، فالتقت عيناها بعينيه اللتين كانت تومضان بوميض فضي. ووجدت نفسها عاجزة عن التفكير أو التفوه بكلمة.

ارتدى غاب للمناسبة، بذلة رسمية رمادية داكنة، وقميصاً بيضاء رائعة، وربطة عنق حريرية مخططة، وعلّق في عروة سترته زهرة غاردينيا صغيرة، فبدا عريساً بكل معنى الكلمة!

كان يحمل في يده وردة غاردينيا كبيرة، فأحست بقلبها يرفرف، كأنه علم في مهب الريح.

وقالت له بصوت مرتجف: «غاب..».

- لم يفت الأوان بعد لتبدلي رأيك.

رد عليها هامساً في أذنها، فأحست بموجة من الحر تجتاح جسدها، وقبل أن تتمكن من التقاط أنفاسها، شبك وردة الغاردينيا بدبوس في كتف قميصها البيضاء، التي ارتدتها أندريا مع بذلتها القمحية اللون، فقالت له

متذمرة: «لا أستطيع الزواج في هذه الملابس».

لف ذراعه حولها، وشدها إليه بقوة: «تبدين جميلة مهما ارتديت من ملابس. ما عليك إلا أن توقعي على رخصة الزواج، ليبدأ القاضي ريفرز الإجراءات. اقترح والداك أن يشهدا على الزواج، لقد أحببتهما كثيراً يا أندريا!».

قال لها ذلك بصوت عميق، فشعرت بغصة في حلقها وأجابته بنبرة مفعمة بالأسف: «لا أرى أحداً من أفراد عائلتك».

وإذا بالكاتب يناولها القلم لتوقع على الرخصة.

ـ حاولت الاتصال بوالدتي، ولكنني لم أجدها في المنزل. أما بالنسبة إلى والدي، فسيعلم بالخبر عند وصولنا إلى الجزيرة.

وغدت نظراته أكثر رقة وهو يقول: «ستصبحين عائلتي كلها، وهذا وحده يكفيني».

ـ كلا، هذا غير صحيح، وأنت تعرف ذلك جيداً.

ـ آنسة بوير! أنا القاضي ريفرز!.

تقدم الرجل الأشيب الوسيم الذي كان يرتدي رداءً أسود نحوها مصافحاً: «كيف حالك؟ إنه لشرف لي أن أتعرف على المرأة التي أعادت غاب إلى رشده. فليقف والداك إلى يمينك، لنبدأ بالإجراءات الرسمية».

أحست أندريا بأصابع غاب تشتبك بأصابعها وتشد عليها، فأكدت لها حرارة جسمه بأنها لا تحلم فهما على وشك الزواج فعلاً!

وقف القاضي أمامها وراح يقول: «لا شك أن شخصين عملا سوياً في الشركة عينها، يعرفان الكثير عن بعضهما البعض، ولكن المرء لا يكتشف حقيقة الآخر إلا بعد أن يجمعهما رباط الزواج، سررت كثيراً حين علمت أن غاب اتخذ قرار الزواج هذا، وهذا يعني أنه يؤمن بالارتباط الأبدي،

مهما خبأ لكما المستقبل، وأنه لا يخشى من أن يقطع وعداً بالزواج أمام الله والناس. وهذا يعني أيضاً أنه سيحرص على تلبية حاجاتك كلها، ويحرص على إسعادك. سررت كثيراً حين علمت أن أندريا ترحب بعقد الزواج لتكون رفيقتك وسلواك. فارتباطها بعقد الزواج يعني استعدادها لإنجاب الأولاد وتربيتهم، إن أنعم الله عليكما بهم».

شد غاب قبضته على يدها عند سماعه هذه الكلمات. وتابع القاضي يقول: «مع أن أوقاتاً عسيرة ستمر عليكما، لا بد أن تليها أوقات جميلة، لأن إيمانكما يقوي عزمكما ويجعل زواجكما أكثر صلابة وجمالاً مع كل تحدٍ جديد. أندريا بوير، هل تقبلين بغابريال كوربن زوجاً شرعياً لك، وتتعهدين بأن تحبيه وتعامليه باحترام، وتخلصي له إلى أن يفرق الموت بينكما؟».

أحست بضيق في صدرها، من أين للقاضي ريفرز أن يعلم أن زواجهما ليس مبنياً على الحب؟

ـ أ... أجل...

ـ غابريال كوربن، هل تقبل بأندريا بوير زوجة شرعية لك، وتتعهد بأن تحبها وتعاملها باحترام وتخلص لها إلى أن يفرق الموت بينكما؟

ـ أجل.

جاء رد غاب مفعماً بالوقار.

ـ بموجب السلطة التي منحتني إياها ولاية نيويورك، أعلنكما زوجاً وزوجة. إن كنتما قد حضرتما خاتمين، يمكنكما أن تتبادلاهما الآن.

مد غاب يده إلى جيبه وأخرج منها خاتماً ذهبياً، دسه في خنصر يدها اليسرى. وبالطبع، لم تجلب أندريا معها خاتماً لتقدمه له.

عندما رفعت عينيها إليه، علمت أنه قرأ أفكارها، إذ قال لها: «لا

تقلقي. أحضرت لك واحداً».

- تأخرت على المحكمة يا غاب، أسرع وقبّل عروسك الجميلة، إنه الجزء الأحب إلى قلبي.

ضحك والد أندريا ضحكة خافتة، فيما ابتسم غاب ابتسامة عريضة، وقال كأنه يغيظها: «وأنا أيضاً».

وأسرع يلبي رغبة القاضي.

كانت قبلة الزفاف أكثر روعة مما توقعت. عانقها غاب عناقاً طويلاً، بدا كافياً لإقناع الحاضرين بأنهما زوجان عاشقان. قال لها القاضي: «اسمحي لي أن أكون أول المهنئين، سيدة كوربن».

سيدة كوربن!!

لأربع وعشرين ساعة خلت فاتحت أندريا غاب في موضوع تركها للعمل، وها هو الآن يقف إلى جانبها وقد أصبح زوجاً لها.

- شكراً أيها القاضي ريفرز.

صافح القاضي والديها وتوجه نحو الباب. رافقه غاب إلى الخارج، فيما هبّ والداها إلى معانقتها مهنئين، فبدا لها المشهد برمته أقرب إلى الخيال.

بعد مغادرة القاضي الغرفة، توجه غاب نحوها ووقف بقربها، وقد لف خصرها بذراعه: «لست أدري ما رأيك يا سيدة كوربن بالأمر، ولكنني مستعد للانطلاق في رحلة شهر عسلنا».

غزت الحمرة خديها وعنقها، من دون أن تجد سبيلاً لردعها وتمتمت: «إلى أين سنذهب؟».

- إلى منزلنا.

أجابتها والدتها فرحة، فهز والدها رأسه قائلاً: «أعرب غاب عن رغبته

بقضاء أسبوع برفقتنا، وأظن أنني بدأت أحب صهري الجديد».

- لم يكن لدى أندريا شك بذلك، فما من رجل في العالم أجمع يستطيع أن ينافس غاب. وأقرت في سرها بأسى بأن الألم أطفأ شعلة قلبه منذ زمن بعيد، ولا تملك أي امرأة في الكون القدرة على اشعالها من جديد. وحده الطفل قد يمنحه سبباً جديداً للحياة، طفل من لحمه ودمه. لم تجد أمامها خياراً أفضل من أن تضع هذه الفكرة في المقام الأول لتتمكن من مواجهة ليلة زفافها.

كانت الأمسية حارة ورطبة، وبدت أندريا عاجزة عن مقاومة التعب، فأغمضت عينيها. كانت تسمع كلام الجالسين على الشرفة في منزل والديها، إلا أنها فقدت تسلسل الحديث.

- يبدو أن ابنتك يا كارل ستتركني سهراناً وتستسلم للنوم. أظن أن الوقت حان لنأوي إلى الفراش.

أجابه والدها هامساً: «لا ألومها بعد أن قطعت الأطلسي مرتين، في يوم واحد، وعقدت بعده زفافها».

نهض غاب عن الأرجوحة وساعد أندريا على الوقوف على قدميها، ثم وضع يده حول خصرها ليسندها، فسرت قشعريرة على طول عمودها الفقري، جعلتها تترنح.

- رينات، أشكرك على العشاء. إنه أطيب طبق نقانق ذقته في حياتي.

- شكراً لك. إنها وصفة عائلية، وأندريا تجيد تحضيرها أيضاً.

نهض والدها بدوره من مكانه: «سننزل إلى المتجر في الصباح، ونعود لتناول الغداء معكما».

- هذا لمن دواعي سرورنا.

قال لهما غاب ذلك، وهو يهمس في أذنها: «هيا يا حبيبتي، عليك أن ترشديني إلى الغرفة».

«حبيبتي»، أثارت تلك الكلمة غضبها، وتسببت بطرد النعاس من جفونها.

ـ عمتما مساءً!

قالت ذلك لوالديها بصوت خفيض، وهي تتسلل من بين ذراعيه. وقبل أن يتمكن من الاعتراض، عبرت الرواق متوجهة إلى السلم.

في طريق العودة من المحكمة، أوصلها غاب إلى شقتها لتحضر أغراضها. أما هو فقد وضب حقيبته قبل أن يذهب لمقابلة والديها. وقد حرص على الاهتمام بأدق التفاصيل كي لا يترك شيئاً للصدفة. هذا هو أسلوب غاب في تدبير الأمور.

بعد أن لحق بها إلى غرفتها القديمة، التفتت نحوه وهي مصممة على وضع النقاط على الحروف، إلا أنها تفاجأت به يقف على مقربة منها، فتراجعت خطوتين إلى الوراء، وقد أحست بالغرفة صغيرة جداً أمام رجولته الساحقة. تلك الغرفة التي لم تطأ أرضها قدم رجل إلا والدها. شعرت بالذعر يدب في أوصالها وهي تبدأ كلامها قائلة: «كلانا يعرف السبب الأساسي لزواجنا. وسأكون ممتنة لك إن كففت عن مناداتي بـ «حبيبتي»!».

حدق غاب بها: «ماذا بعد؟».

بللت شفتيها بعصبية: «ماذا تقصد؟».

ـ أريد سماع لائحة الممنوعات كلها، وسأبذل جهدي لأقف عند رغباتك.

بدا لها غاية في الحكمة، فلم تجد ما تقوله له، وتملكتها رغبة جامحة

بأن ترميه بشيء ما.

ـ أعلم جيداً أنك لم تقيمي علاقة من قبل يا أندريا. ومع أننا الآن متزوجين، لكنني لن أفعل شيئاً لا ترغبين به. وبصراحة، أشعر بأنني منهك تماماً وأحتاج إلى النوم، فإن كنت لا تمانعين، سأستعد للخلود إلى الفراش قبلك ويمكنك الانضمام إلي ساعة يحلو لك.

تأملته بعينين ملؤهما اليأس وهو يدخل إلى حمامها، وبدلاً من أن تتنفس الصعداء أحست بالإهانة، لأنه لا يشعر بالانجذاب إليها بما يكفي ليحاول اغواءها. فعلى الرغم من إلحاحه على عقد الزواج من دون تأخير، ها هو يتذرع بالتعب كي لا يتمم واجباته الزوجية، في ليلتهما الأولى معاً!

تناهى إلى مسمعها خرير المياه في الحمام، فأسرعت ترتدي قميص نومها وعباءتها، ثم جلست أمام المنضدة تمشط شعرها، إلا أنها ما لبثت أن شعرت بسخافة تصرفها، فهي إنسانة راشدة بلغت الثامنة والعشرين من عمرها. رمت عباءتها عند طرف سريرها، وأطفأت النور، ثم اندست تحت أغطية السرير، غير آبهة لما سيفكر به حين يدرك أنها خلدت إلى الفراش قبله.

بعد مرور دقيقتين تقريباً، شعرت به يقف قرب سريرها، ثم أشعل النور فجأة، ففتحت أندريا عينيها لتجد غاب أمامها حليق الذقن، وقد اكتفى بارتداء الجزء السفلي من ثياب نومه.

فأحست بالارتباك ولم تكد تلحظ العلبة التي يحملها بين يديه، التي تشبه علبة المجوهرات. أتراه يحمل لها هدية الزفاف؟

جلس غاب قربها وفتح العلبة، ففاحت منه رائحة الصابون الذي استحم به، مثيرة حواسها ومشوشة ذهنها.

ـ أحضرت لك ميزاناً لتقيسي حرارة جسمك صباح كل يوم، قبل أن تنهضي من السرير.

ووضع الميزان على الطاولة الصغيرة قرب السرير ثم أضاف: «تجدين داخل العلبة رسماً بيانياً لتسجلي درجات الحرارة عليه. أحضرت لك أيضاً اختباراً للخصوبة. قال لي الصيدلي إنك لن تحتاجي إلا لاختبارين شهرياً، تركته لك في الحمام».

وتساءلت أندريا في سرها كيف تسنى له أن يقوم بهذه الأمور كلها خلال وقت قصير.

ـ لا أريدك أن تكرهيني يا أندريا. إن كنت لا تعرفينني جيداً، فأنا من النوع الذي لا يحب أن يدع الأشياء للصدف.

ـ لا يمكنني أن أكرهك يا غاب، فأنت تفعل ذلك من أجلنا. لذا تراني ممتنة لك أشد الامتنان لأنك تسهل الأمور علي.

أحست بفمه يرتجف قليلاً إلا أنها لم تستطع أن تتكهن بما يدور في رأسه من أفكار.

ـ نامي جيداً وسنشعر غداً بأننا شخصان جديدان.

وفجأة، لف الظلام الغرفة، وأحست به يستلقي إلى جانبها. ولم يمضِ وقت طويل، حتى أدركت، وهي تسمع وتيرة تنفسه، بأنه استسلم للنوم.

أمضت الدقائق العشر التالية فريسة صراع داخلي، تتآكلها الرغبة بأن تأخذ المبادرة وتوقظه. إلا أنها لم تكن تتحلى بالشجاعة الكافية للقيام بذلك، فقررت أن تأخذ حماماً ساخناً علها تسترخي. وإذ همت بالنهوض من السرير، أحست بذراعه القوية تحيط بخصرها.

ـ آه!

صرخت لاهثة وهو يشدها إلى صدره القوي، وقد أخذ قلبها يتخبط بين ضلوعها!

ـ لم أشأ أن أوقظك يا غاب!

لفحت أنفاسه الحارة مؤخرة عنقها، فأحست بالشهب تتدافع في داخلها.

ـ لم أستطع أن أتحمل أكثر. لو كنت تعرفيني جيداً، لأدركت بأنني لن أقوى على الاستلقاء إلى جانبك من دون أن تشتعل في أحشائي نيران الشوق إليك. إنك امرأة تنبض بالأنوثة، ولن أشعر بأنني رجل كامل الرجولة إذا ما تجاهلت وجودك إلى جانبي.

وقبل أن تعي ما يحصل أدارها نحوه لتواجهه، فتلاصق جسداهما.

كان عناقه كاسحاً، يدل على جوع لا سبيل لإشباعه، تماماً مثل جوع أندريا إليه، والذي أخذ يتفاقم منذ وجودهما معاً في باريس. فإذا بموانعها كلها تنهار.

مع أنها تعرف جيداً بأنه لا يحبها، ولكن كليهما يتوقان لإنجاب طفل. فلا ضير إن قام كل منهما بإشعال نيران الشوق في أحشاء الآخر، ليبلغا معاً الهدف المنشود.

مع شروق شمس الصباح، تسللت أشعتها عبر النافذة، فأسرع غاب يوقظها. راحت عيناه الناعستان العابثتان تتفرسان في قسمات وجهها: «صباح الخير، سيدة كوربن».

ثم قال لها بنبرة خافتة أكثر من العادة: «حان الوقت لتسجلي حرارة جسمك».

وضعت ميزان الحرارة في فمها، وهي شبه مخدرة، فيما تسلل غاب من الفراش ليحلق ذقنه.

بعد عودته، سجل حرارة جسمها، ثم اندس تحت الأغطية، واستسلم كلاهما للنوم من جديد.

حين فتحت أندريا عينيها ثانية، أدركت أن هدير سيارة والديها، على الطريق الفرعية، أيقظها من سباتها. فألقت نظرة عجلى على ساعة يدها، إنها الثانية إلا خمس دقائق. تضرج خداها وقد أدركت أنهما أمضيا في السرير أكثر من ست عشرة ساعة.

- علينا أن ننهض من السرير يا غاب، عاد والداي إلى المنزل!

شدها إليه مداعباً: «هدئي من روعك، فهما يعلمان جيداً أننا نقوم بمحاولات حثيثة لانجاب طفل».

ما إن سمعت تلك الكلمات، حتى أخذ بصيص الأمل، الذي شق ليلاً طريقه إلى قلبها، بعد أن ظنت أن غاب يكن لها بعض المشاعر، يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن اضمحل كلياً.

لا شك أن النشوة الغامرة، التي اكتشفتها بين ذراعيه، أنستها للحظات قليلة، سبب حماسة زوجها المفرطة. أتراه وضع الخطوط العريضة لوقائع ليلة زفافهما، على غرار تلك اللحظات الجميلة، على حلبة الرقص في شمبانيي؟

كانت تعلم أنها ستدفع غالياً ثمن وقوعها في حب رجل لا يحبها، ولكن سذاجتها أعمت عينيها عن العذاب الذي ستعانيه إن لم تقترن علاقتها بغاب بالحب.

- إلى أين تحسبين نفسك ذاهبة؟

كان هذا الصوت الناعم يتردد في أذنيها طوال الليل. أفلتت بسرعة من بين يديه، ونهضت من الفراش تبحث عن عباءتها، فوجدتها مرمية على الأرض، لا بد أنها وقعت خلال الليل، رفعتها عن الأرض وارتدتها ثم لفت الحزام حول خصرها وربطته باحكام، وأجابته قائلة:

- من يؤدي الواجب المطلوب منه يحتاج إلى استراحة صغيرة ليتناول طعامه. سأذهب لأقوم بواجبي وأعد لك الغداء.

ابتسم لها غاب ابتسامة مثيرة وهو ما يزال ممدداً في السرير ثم قال: «فليكن غداءً شهياً، لأنك فتحت شهيتي على الأكل».

دخلت أندريا إلى الحمام، ولاحظت معدات اختبار الخصوبة على المغسلة، كدليل واضح على رغبته الشديدة بأن يصبح أباً. فترقرقت الدموع من عينيها.

لا شك أن الطفل سيملأ مكاناً فارغاً في داخله، ولكنه لن يمحو إحساسه بالذنب.

طوال السنوات الماضية، كان ايف مقتنعاً بأن الطفل الذي فقدته جان ماري هو طفله. ولكن غاب لا يخشى ردة فعل ايف أو جان ماري، بل والده. أتراه يأمل في أن يستعيد رضى والده عليه، مع عودته إلى الجزيرة، وإلى جانبه زوجة؟ ألهذا السبب يأمل بأن يرزقه الله طفلاً في المستقبل القريب؟ ألهذا السبب تخلى عن ثروته كلها؟ ألأنه يسعى إلى كسب احترام والده له؟

دفنت أندريا وجهها في المنشفة. كيف تمكن من الاستمرار في الوجود من دون حب والده وعفوه؟

إنها المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها عاجزة إلى هذا الحد.

٤ ـ طعنة في الصدر

بعد مضي عشرة أيام، وجدت أندريا نفسها تحلق في السماء. من جديد، وقلبها يخفق بسرعة من شدة القلق. لم تكن مسافرة هذه المرة برفقة رب عملها، في رحلة عمل، في طائرته الخاصة، بل مسافرة برفقة زوجها، على متن طائرة للركاب، يقصدان معاً أرضاً غير ودودة، حيث مستقبلهما كزوجين لا يزال مجهولاً.

خلال إقامتهما في منزل والديها، قصد غاب مانهاتن مرات عدة، ليبيع ممتلكاته هناك، ويبحث عن سمسار ليبيع شقتهما، أما الأغراض القليلة التي قررا الاحتفاظ بها، فستُشحن إلى الجزيرة في وقت لاحق.

لم تسأله أندريا لما فضل أن يصلا إلى الجزيرة كأي سائحين عاديين، فتصرفاته كلها بعيدة كل البعد عن تصرفات رجل عادي. مع أنه تخلى عن ثرواته الوافرة من أجل أن يحسن وضع عائلته وجزيرته، من دون أن يعلم والده أو أخوته شيئاً عن هذه الحقيقة، وقد لا يعلمون بها أبداً. . فآل كوربن ومعارفهم في جزيرة سان بيار وميكيلون لا يعرفون إلا حقيقة واحدة وهي أن غاب ارتكب جرماً لا يغتفر حين رحل عن الجزيرة ليجمع ثروة له، من العمل في ميدان أجهزة الكومبيوتر. وبعد مرور هذه السنوات كلها، ها هي أندريا تعي أكثر من سواها، سبب رفضه أن يرجع إلى الجزيرة مليونيراً عظيم الشأن، فيتباهى أمام الجميع بممتلكاته وأمواله. صحيح أن ابتعاده عن عائلته طويلاً لم يكن من صنعه، إلا أنه كان يأمل في أن يصلح ما أفسده

الدهر، مولياً مسألة حل الخلافات الاهتمام الأكبر، قبل أن يقدم على أي خطوة في هذا الصدد. من جهتها، عقدت أندريا العزم على أن تبذل كل ما بوسعها لمساعدته في هذه النقطة بالذات.

وعلى الرغم من أنها لم تطلع والديها على ماضي غاب المأساوي، لم تخفِ عنهما استياء عائلته منه، بسبب رحيله عن بلده الأم، والصراع الحاد الذي ينتظرهما فور وصولهما إلى الجزيرة. فالحديث عن معاناته المريرة، طوال هذه السنوات، ستفتت قلبهما من الأسى عليه. فخلال عشرة أيام، انقلبت حياتهما رأساً على عقب، بفضل هذا الرجل المميز الذي أصبح صهرهما، وجعلا منه فرداً أساسياً من أفراد عائلة بوير.

لم تخله أندريا عاشقاً رقيقاً ومثيراً إلى هذا الحد، ولكنها كانت تذكر نفسها دوماً بأن هذا الشغف يهدف إلى جعلها تصدق بأنها محبوبة لا أكثر ولا أقل. ومهما جرفتها نشوة الحب بعيداً، كان غاب يناولها ميزان الحرارة في الوقت عينه من صباح كل يوم، وكأنه يريد أن يعيدها إلى شواطىء الواقع، لتدرك حقيقة تلك الليالي الساحرة، حقيقة ما انفكت تجرحها في الصميم في وضح النهار. ومع ذلك فهي تبدأ مع غروب الشمس بعدّ الدقائق، إلى أن يقترح غاب عليها الصعود إلى غرفتهما.

إلا أن هذه الليلة ستكون مختلفة عن سواها، لأنهما سيقضيانها برفقة جد غاب، وكم خشيت أن يتحول زوجها إلى إنسان مختلف، فدب الذعر في قلبها وقد أدركت في أعماقها أن الأمور ستتغير لا محالة! وعلى الرغم من أنه أكد لها، مراراً وتكراراً، أن جده سيستقبلها بالترحاب، وجدت أندريا صعوبة في الادعاء بأنه سيقع في حبها من النظرة الأولى. فهي ليست فتاة فرنسية من بنات الجزيرة، أو تجيد لغتها الأم، أما الشهادة التي حازت عليها في هندسة الكومبيوتر، فجعلتها تبدو نقيض المرأة التي قد يختارها رجال كوربن للزواج، فلا أحد يشبهها من نساء العائلة باستثناء والدة

غاب، ما زاد الطين بلة. إذ يكفي أن يلقي أفراد عائلة كوربن نظرة واحدة عليها، ليدركوا أن التاريخ سيعيد نفسه عاجلاً أم آجلاً، فترحل عن الجزيرة وقد ضاقت ذرعاً بقساوة الحياة فيها.

همس غاب في أذنها: «إننا نقترب من الجزر يا أندريا».

كانت كلماته مشوبة بعاطفة جياشة. وأحست بجسده يتصلب من دون أن تلمسه، أي شخص آخر قد يرى في هذا المكان مشهداً طبيعياً خلاباً يسلب العقل، إلا أنه موطن زوجها الذي أبعد عنه ثماني عشرة سنة، نزولاً عند رغبات والده الاستبدادية. وفيما كانت تنظر من نافذة الطائرة، بدأت الغشاوة التي عامل بها ابنه تفرض نفسها ثانية، فشعرت أندريا بألم في قلبها وكأن أحدهم طعنها بحربة، فعضت على شفتها، محاولة أن تركز اهتمامها على المنظر الخارجي.

بدت السماء الزرقاء مرقطة بغيوم صغيرة أشبه برزم من القطن. قال لها غاب إن الجزر عددها سبعة، ولكنها لم تر من مقعدها إلا ثلاثاً، تحيط بها مياه الأطلسي الزرقاء المائلة إلى الخضرة. وتقع شرقاً، على بعد آلاف الأميال، شواطىء فرنسا، بلدها الأم. هذا هو المكان الذي ترعرع فيه غاب، إنه ابن هذا المحيط، ومثلما أغوت الحواري عولس بغنائها، أغوته هذه الشواطىء الغادرة، التي بدت حميدة من هذا الارتفاع، غير أن العواقب لم تكن متوقعة.

أحست بجسمها يرتجف خوفاً من صفحة الألم الجديدة، التي ستنفتح قريباً في حياة زوجها. ليتها تستطيع الحؤول دون أن يتعذب ثانية، ولكن ما بيدها حيلة!

وإذا بيده القوية الدافئة تمسك بيدها: «أؤكد لك أنك ستركين انطباعاً جيداً لدى جدي، يا أندريا».

يا لسخرية القدر! ها هو غاب يحاول أن يخفف عنها، في الوقت الذي

يحتاج هو فيه إلى من يخفف عنه! أخذت نفساً عميقاً وأجابت قائلة: «أرجو ذلك».

ـ عند وصولنا إلى المطار، سنجد سيارة أجرة لتقلنا إلى منزله، ففي يوم جميل كهذا، أظنه خرج لصيد السمك. سنستغل فرصة غيابه لنفرغ حقائبنا ونستريح قليلاً.

ـ أظنه سيصعق حين يعلم بوجودنا.

قاطعها مطمئناً: «لا تقلقي، لقد انتظر جدي هذا اليوم طويلاً، ومع أنه لم يتنبأ بالموعد الصحيح، إلا أنه يعلم في قرارة نفسه، أن هذا اليوم سيأتي لا محالة».

قال لها ذلك بصوت أجش مفعم بعواطف مكبوتة، فأحست بالدموع تغشى بصرها. وكم شعرت بالارتياح حين رأت جهاز الإنذار يبعث إشارات ضوئية متقطعة، ليشد الركاب حزام الأمان. فحولت عينيها عنه، لتثبت حزامها، ثم عادت تنظر من النافذة من جديد. كان الأرخبيل الجميل يمتد تحت ناظريها، فيفتنها.

ما إن بدأت الطائرة بالهبوط، حتى أخذت المباني والمنازل ذات الألوان المتفاوتة ما بين الذهبي والأزرق والأخضر تبرز أمامها مرحبة بها، ومدخلةً البهجة إلى قلبها. من قال إن هذا المكان موحش؟ على أي حال، هي لم تذق طعم الشتاء فيه بعد؟

كانت الطائرة تضم عدداً كبيراً من أساتذة اللغة الفرنسية، جاؤوا من الولايات المتحدة، للمشاركة في مؤتمر لغوي، وقد التقت أندريا في غرفة الإستراحة في مطار هاليفاكس بمعلمة من جامعة ماديسون في ويسكونسين تدعى مارشا ايفنز، فأخبرتها المرأة عن هذا الحدث.

وفكرت أن رغبتها في التقرب من عائلة غاب تفرض عليها أن تتعلم لغتهم الأم لتنال حظوة لديهم.

- هلا ذهبنا؟

وحمل غاب الحقائب الثلاث الكبيرة، تاركاً لها حقيبة صغيرة علقتها في كتفها، وأخرى حملتها في يدها، ثم غادرا المطار معاً وتوجها إلى المرآب حيث احتشد عدد من سيارات الأجرة. كان أحد سائقي سيارات الأجرة، وهو رجل بني الشعر، يقارب سنه سن غاب يقف متكئاً على باب سيارته، ويدخن سيجارة، وعندما وقعت عيناه على غاب، وقعت السيجارة من فمه: «غابريال كوربن!».

ناداه صارخاً قبل أن يتوجه نحوهما: «أهذا أنت؟».

- نعم يا فابريس، هذا أنا!

- مستحيل!

وارتسمت على ثغر الرجل ابتسامة عريضة وهو يهرع نحو زوجها، يعانقه ويقبله على خديه، فأحست أندريا بمعنوياتها ترتفع، وقد أدركت أن سكان سان بيار لن يديروا له ظهرهم جميعاً. بعد أن تحدثا لبعض الوقت بلهجة فرنسية سريعة، التفت غاب نحوها وقال لها بالفرنسية: «حبيبتي!».

ثم ما لبث أن انتقل إلى الإنكليزية مضيفاً: «أقدم لك صديقي الحميم فابريس بالمانتيه، فابريس، أقدم لك زوجتي أندريا».

- كيف حالك؟

صافحت الرجل القصير القامة الذي تأملها بإعجاب جلي قبل يلتفت نحو غاب قائلاً: «لو بقيت هنا يا صديقي، لماعثرت على عروس مثلها، يمكنني أن أسامحك على غيابك، بعد أن تعرفت على المرأة التي سلبت عقلك».

وفكرت أندريا في سرها: كم أنت واهم يا فابريس، فأنا لم أسلب عقله مطلقاً!

- كم من الوقت ستمكث هنا؟ لطالما كانت ليز تفضلك عليّ، ولن تغفر لي أبداً إن لم أدعكما إلى العشاء.

لا شك أن هذا التعليق البريء. يحمل بين ثناياه شيئاً من الحقيقة، فهي لن تتفاجأ أبداً إن علمت أن زوجها زير نساء.

- إنه لمن دواعي سرورنا أن نقبل دعوتكما إلى العشاء، وبعد أن نستقر في منزلنا، يمكننا أن نتبادل الزيارات.

ارجع فابريس رأسه إلى الخلف: «أي منزل؟».

- اشتريت المنزل المجاور لمنزل جدي، لكننا سنقيم معه إلى أن يصبح منزلنا جاهزاً للعيش فيه.

تسمر الرجل في مكانه مصعوقاً، ثم قال هامساً: «إنك تمزح، أليس كذلك؟».

- لا يا صديقي، عدت كي استقر هنا.

لمحت أندريا في عينيه وميض شك، وفجأة انفجر ضاحكاً وضم غاب بين ذراعيه بقوة، كما اعتاد والدها أن يفعل حين يعجز لسانه عن الكلام من شدة السرور. لفت تصرفه هذا انتباه المعلمة التي تعرفت عليها أندريا، فلوحت لها بيدها قبل أن تصعد إلى الباص مع الآخرين.

كان الارتياح البادي على وجه غاب خير دليل عما يجول في ذهنه، إذ خيل له، للحظة من اللحظات، أن العالم كله سيقف ضدهما، إلا أن صديقه أزاح الشك من رأسه، ببقائه وفياً له، مهما طال بعادهما. كان يحتاج إلى حليف يسانده، وهل من حليف أفضل من صديقه القديم؟ أحست أندريا بأن رحيل غاب عن سان بيار، أحزن الكثيرين، بمن فيهم فابريس!. والحق يقال إن لقاءهما صدفة، في هذا اليوم بالذات، يبشر بالخير.

- هيا بنا!

وحمل فابريس حقيبتين وأضاف: «سأوصلكما إلى المنزل، مثل الأيام الخوالي!».

لم تغفل أندريا عن نبرته المشوبة بالعواطف الصادقة تجاه غاب، ومع أن زوجها لم يعتد على التعبير علناً عن عواطفه، إلا أنها لمست تغيراً لافتاً فيه. وما إن استقرا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، حتى أخذ توتره يتلاشى، وراح يمازح صديقه بالفرنسية كما اعتادا أن يفعلا في صباهما، فيما قادهما فابريس عبر منطقة سكنية تبعد حوالي أربعة أميال عن المركز التجاري. أوحت إليها ابتساماتهما العريضة بأنهما يستعيدان ذكريات الماضي، ولو أن أحد موظفي إمبراطورية غاب المالية شاهد رب عمله في تلك الحالة، لما تمكن من التعرف عليه، إذ زالت عن وجهه إمارات الكآبة التي كانت تلازمه باستمرار، فبدا فجأة أصغر سناً، وجهه ينبض بالسعادة، والحق يقال إنها كانت مستعدة للتضحية بكل ما تملك شرط أن تدوم هذه السعادة. ولما تمكنت أخيراً من المشاركة في الحديث، سألت فابريس عن عدد أولاده، فأجابها: «اثنان ونصف».

كان غاب يمسك بيدها طوال الطريق، وعندما سمع رد صديقه، داعب راحتها بابهامه، مشعلاً حواسها ومثيراً ارتباكها، سواء أكان يقصد ذلك أم لا، أدركت أندريا أنه يفكر في الطفل المنتظر. ولكن مع عودته الآن إلى سان بيار، خشيت أن تسيطر على ذهنه ذكرى تلك الليلة التي أمضاها مع جان ماري، وأثمرت عن جنين لم يرَ النور، فتقبض مضجعه.

لم تشأ أندريا أن تفكر في ردة فعله، حين يراها ثانية، لا سيما وأنها ليست صديقته السابقة فحسب، بل زوجة شقيقه ايف أيضاً. لعب دوره أمام شقيقه، حتى لا يعرف أحد أبداً بأن جان ماري كانت وراء بعده عن سان بيار

طوال هذه السنوات، فلا أحد من أفراد عائلته سيدرك مدى مرارة عذابه!

نظرت أندريا من النافذة إلى مجموعة المنازل المصطفة جنباً إلى جنب، بأشكالها وأحجامها المختلفة. إنه لمن المؤسف حقاً أن يقطن أقارب غاب جميعهم في هذه البقعة النائية من العالم، ومع ذلك لم يرق قلب والده، وإن لمرة واحدة، ليطلب منه العودة لرؤيتهم أو حتى لزيارتهم زيارة خاطفة.

أوقف فابريس السيارة أمام منزلين متلاصقين، كان الأول مؤلفاً من طابقين، طليت جدرانه الخارجية الخشبية باللون الأزرق، وزخرفت بالأبيض، حتى بات يحاكي الأكواخ السويسرية، ورأت أندريا أمام الرواق الفسيح سلماً صغيراً يؤدي إلى البوابة الأمامية. كانت أشجار الصنوبر الشاهقة ترتفع في الأنحاء، فيما أحاطت النباتات المتعرشة بقاعدة البناء. وبرز إلى جانب أشجار الصنوبر بناء خشبي، مؤلف من طابقين، مطلي باللون الزهري الشاحب ومزخرف بالرمادي، وقد دهنت قاعدته ذات الدعائم الخشبية باللون الأرجواني فبدا أشبه بتلك الكنائس الريفية التي تكثر في البراري البعيدة.

وقفت أندريا تتأمل السقف المنحدر المستطيل الشكل، الذي استبدل فيه برج الجرس بنافذة.

- مصائب قوم عند قوم فوائد! سنطليه بلون مختلف، ونعيد تنسيق الحديقة المحيطة به، بعد أن ننتقل للاقامة فيه.

قال لها غاب ذلك بصوت خافت قبل أن يطبع قبلة على صدغها. لوت أندريا فمها: «يبدو لي في حالة يرثى لها ويحتاج إلى الكثير من العمل».

- إنني أنتظر ذلك بفارغ الصبر.

أحست أندريا وكأنهما نزلا في كوكب مختلف، وراحا يجولان في أرض غريبة، لم تكن لتراودها حتى في أحلامها. وفي تلك اللحظة خرج

جاك إلى الشرفة.

- دعني أساعدك في حمل الحقائب، أريد أن ألقي عليه التحية.

لاحظ غاب أن مركب الصيد القديم مربوط بالمرسى باحكام، فأدرك أن جده في المنزل. أحس بغصة في حلقه وهو يراه ينظر من النافذة ملوحاً لـ فابريس، مرتدياً كعادته سروالاً داكناً وكنزة صوفية.

لم يعد في رأسه شعرة واحدة سوداء، وعلى الرغم من المسافة الكبيرة التي تفصل بينهما، لاحظ غاب أن التجاعيد زحفت إلى وجهه، ولكن جسده لم يفقد شيئاً من حيويته، إذ نزل السلم بخفة كأنه أصغر من عمره بعشر سنوات.

- قالت له أندريا وهي تحثه على النزول من السيارة: «لا تقلق بشأني يا غاب. اذهب للقائه!».

شد على يدها بقوة قبل أن يفتح الباب ويترجل من السيارة.

- غابريال!.

علا صراخ جده قبل أن يصل إليه، وسرعان ما لف غاب ذراعه حول الرجل العجوز ليجد أنه خسر بضعة سنتيمترات من طوله وبضعة كيلوغرامات من وزنه. قال له بصوت أجش وهو يزرع وجنتيه بالقبل: «عدت لأبقى يا جدي!».

أطلق الجد العنان لدموعه من دون حرج وراح يردّد: «أشكرك يا إلهي! أشكرك يا إلهي!».

- أحضرت معي ضيفة.

والتفت نحو أندريا، التي وقفت إلى جانب فابريس، وقد بدت عيناها الزرقاوان الدامعتان، أشبه بجوهرتين متلألئتين وسط أشعة الشمس المائلة للغروب. دس ذراعه حول خصرها قائلاً: «جدي، أقدم لك زوجتي أندريا

بوير، أندريا، أقدم لك جدي جان جاك كوربن، ولكن الجميع ينادونه جاك».

كان جد غاب محدثاً لبقاً، إلا أنه وجد نفسه عاجزاً عن الكلام أمامها، إذ لم تسحره نظرات أندريا المتوهجة فحسب، بل أثرت فيه مشاعرها الجياشة، التي لم تقوَ على اخفائها. انعكست روحها الطيبة في ابتسامتها الودودة، محركة في داخل غاب أحاسيس لم يكن يعلم بوجودها.

- كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر يا سيد كوربن!.

- لا أقبل أن تناديني زوجة حفيدي إلا جاك!.

أومأت أندريا برأسها علامة الموافقة.

- حسناً، أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي.

وقبلها على وجنتيها بحنان كبير.

فكما سلبت أندريا عقل غاب، هاهي تتسلل إلى قلب جده من دون استئذان، فتغمره بحماستها وحيويتها، شأنها شأن جدة غاب رحمها الله. والحق يقال إن غاب بدأ يرى فيها الإكسير، الذي يحتاج إليه جده.

- هيا بنا ندخل إلى المنزل.

ربّت فابريس على كتفه قائلاً: «كنت أتمنى ذلك، ولكن علي أن أعود إلى العمل. لا تقلق، سوق تراني كثيراً، في الجوار، من الآن فصاعداً».

أجابه الجد محذراً: «احرص على أن تأتي لزيارتنا دوماً».

رافق غاب صديقه إلى السيارة وهو يقول له: «سأتصل بك بعد غد، لنتفق على يوم معين نذهب فيه بنزهة في المركب مثل الأيام الخوالي!».

ومد يده إلى جيبه ليخرج محفظته، فتجهم وجه فابريس وقال: «هذه إهانة لي، ألا تعلم أنني أنتظر هذا اليوم منذ سنوات طويلة؟».

أجابه غاب هامساً: «وأنا أيضاً».

لكمه فابريس على كتفه مداعباً قبل أن يصعد إلى سيارته ويشعل المحرك ثم يسأله: «هل علم أحد بعودتك؟».

- كلا.

تردد فابريس قليلاً، ثم عاد يسأله: «ألا تريد اخبار أحد؟».

- فات الأوان لذلك الآن، قابلت ابن عمتي، رينيه، في المطار.

لطم فابريس جبينه بيده: «هذا صحيح، إنه موظف في شركة الخطوط الجوية».

أجاب غاب متمتماً: «هذا ما يبدو... وبعد أن حدق فيّ ملياً أسرع يجري اتصالاً هاتفياً، أظنه اتصل بالعمة سيسيل، ولا شك أن العائلة كلها باتت على علم بعودتي».

- أتقصد القول إنه لم يلقِ بنفسه عليك أو يسلم عليك؟

جاءت نبرة صوته مفعمة بالشك. فوجد غاب في سخطه المبرر بلسماً لروحه.

- كلا!

كانت العمة سيسيل تعامل والدة غاب بقسوة خلال السنوات الأولى من زواجها، ولسوء الحظ نقلت عدوى تحاملها عليها إلى زوجها وأولادها. من جهتها، كانت العمة هيلين باردة معها في البداية، ولكن مع ظهور الخلافات الزوجية تعلمت كيف تتقبلها، إلا أن زوجها وأولادها لم يخرجوا عن تحفظهم تجاهها.

- رباه! ما الذي أدى إلى انقطاع العلاقات الودية طوال هذه السنوات؟

- سأخبرك كل شيء، حين نلتقي مجدداً.

بعد انصرافه، دخل غاب إلى المنزل فوجد حقائبهما في الردهة، وقد قام فابريس بنقلها كلها. كان جده منهمكاً بعرض صور العائلة الموزعة في

أرجاء غرفة الجلوس على أندريا، وقد خطر له أن يعطيها درساً في التاريخ، من دون أن يسألها ما إذا كانت ترغب في ذلك أم لا. غير أن أندريا كانت تصغي باهتمام بالغ إلى حديثه، وراحت تطرح عليه أسئلة لم تحاول طرحها على غاب. وإذ كانا مأخوذين تماماً بالموضوع، لم يلاحظا دخول غاب إلى الغرفة. وبعد قليل، رن جرس الهاتف، فأسرع غاب يرفع السماعة.

- آلو!

لم يجب أحد عند الطرف الآخر من الخط، وما هي إلا ثوانٍ قليلة، حتى أقفل الخط في وجهه. ثم رن جرس الهاتف ثانية، فرفع السماعة قائلاً: «غابريال كورين يتكلم!».

- الأمر صحيح اذن! لقد عدت فعلاً!

تعرف غاب على صوتها في الحال، إنها شقيقة والده الكبرى.

- نعم يا عمتي هيلين!.

- اتصلت بي سيسيل منذ قليل وقالت لي إن رينيه شاهدك في المطار، فخطر لي أنك ستقصد منزل جدك على الفور، لطالما كان المفضل عندك.

رفرف غاب بجفنيه وقد فاجأته نبرة الاستياء في صوتها.

- هذا أمر طبيعي لأنه لم يتحامل على والدتك قط، آسفة لأنني فعلت ذلك، لقد كنت مغفلة.

أصيب غاب بالذهول لدى سماعه هذا الاعتراف:

- قال رينيه إنك أتيت برفقة امرأة شقراء جميلة.

- أجل، إنها زوجتي أندريا.

- كم من الوقت ستمكث في الجزيرة؟

- أتيت لأبقى هنا.

- ما الذي أصابك يا غبريال؟

نبرة صوتها حملت بين ثناياها اهتماماً خالياً من الرياء.

- التقيت بامرأة حياتي، وقررت أن أضع الأمور في نصابها.

- إنها أخبار رائعة! سيصاب أخوتك بالذهول لدى سماعهم خبر عودة أخيهم الذائع الصيت إلى الجزيرة. أتعلم بأنهم يحبونك حتى العبادة، لكنهم لا يعترفون بذلك؟

- إنني غريب عنهم يا عمتي.

- لا يا غاب، منذ رحيلك وأحاديث العائلة تدور كلها حولك، فالجميع فخور بنجاحك.

سألها ساخراً: «الجميع؟».

- أجل، مع أن البعض لن يجرؤ على قول ذلك صراحة.

- حتى والدي!

- لا سيما والدك، فهو يحتفظ بكل المقالات التي تكتب عنك في الصحف والمجلات، ليريها لأفراد العائلة، متباهياً بابنه النابغة. رأيت الدموع ترقرق من عينيه مرات عدة، حتى في تلك اللحظات التي لا يكون فيها ثملاً، مع إنني نادراً ما أراه صاحياً في هذه الأيام.

صدمه تعليقها الأخير. لكن عمته تابعت تقول: «يسرني أن تعود إلى ديارك، فعائلتك تحتاج إليك، ووالدك أيضاً يحتاج إليك».

- لا أظنه احتاج إليَّ يوماً.

- هذا غير صحيح يا غابريال، الأمر هو أنك مختلف عن أخوتك، وطالما خشي جيل أن يفقدك، لا سيّما بعد رحيل والدتك. ومنذ رحيلك عن الجزيرة، تحول إلى إنسان مدمن على الكحول.

إنها المرة الأولى التي يسمع فيها غاب هذا الكلام، فلم يخبره جده شيئاً عن هذا الموضوع. لعله لم يشأ أن يزيد من احساسه بالذنب حيال ما

حصل.

- أظن أنني تكلمت أكثر مما ينبغي.

- لا عليك يا عمتي هيلين، إنك الشخص الوحيد في هذه العائلة الذي لم يخف يوماً من قول الحقيقة. أعترف لك بأني لطالما أعجبت بهذه السمة فيك، حتى وإن كانت تسبب الأذى في بعض الأحيان، إنني سعيد حقاً لأن بعض الأشياء بقيت على حالها.

- تسرني عودتك يا غابريال، كنت قلقة جداً على والدي وأخي في آن معاً، ولكن رجوعك إلى الجزيرة سيقلب الأمور رأساً على عقب.

هل كان إدمان والده على الكحول السبب في نحول جاك؟

- أهلاً بك في ديارك، أريدك أن تحضر زوجتك غداً مساءً لتتناول العشاء معاً. سأدعو الجميع لنحتفل بهذه المناسبة السارة، فقد آن الأوان لتضع هذه العائلة خلافاتها جانباً وتجتمع من جديد، تحت سقف واحد، هذا ما يجب أن يحصل.

ولكن والدة غاب لن تكون حاضرة معهم.

- أقدر لك ذلك، ولكن أفضل أن نتريث قليلاً إلى أن يتسنى لي مقابلة والدي.

- عليك أن تذهب لمقابلته هذا المساء، يمكنك أن تجده في حانة «البحار الصغير».

- كيف علمت بمكانه؟

- منذ سنوات طويلة وهو يقصده كل ليلة، بعد أن ينتهي من صيد السمك.

أحس غاب وكأن أحدهم طعنه في صدره.

٥ ـ خيوط من الماضي

شعرت أندريا بغاب يدخل إلى الغرفة التي خصصها لهما جاك، في الطابق العلوي. كانت تقف قرب النافذة، تتأمل البحر الساكن، منتظرة أن يقفل زوجها سماعة الهاتف، ومنعها خوفها من تأثير هذا الاتصال الهاتفي عليه من أن تتسرع في إفراغ حقائبهما.

أحست أندريا بوجوده خلفها، فاستدارت نحوه. ما إن ألقت نظرة واحدة على وجهه الممتقع حتى أدركت أن مخاوفها كانت في محلها، فالرجل الذي ما برح يمازح فابريس طوال الطريق، من المطار إلى المنزل، والسعادة تملأ قلبه، اختفى فجأة. صرخت بصوت خافت:

ـ يخال من يراك أنك تحمل هموم العالم كله على كتفيك، ما الذي حصل الآن؟

وقف عند طرف السرير المزدوج، وقد جمع كفيه من شدة التوتر: «اتصلت بي العمة هيلين، وأخبرتني أمراً أخفاه جدي عني طوال هذه السنوات».

اقتربت أندريا منه وهي تشعر أن الحزن البادي في عينيه يفوق قدرتها على الاحتمال.

ـ ما هو؟

ـ يبدو أن والدي، المعروف باستقامته، أدمن على شرب الكحول، بعد رحيلي.

على الرغم مما حمله هذا الخبر من أسى، لم تستطع أندريا القول إنه فاجأها، ذلك أن أي إنسان صالح يحظر على فلذة كبده العودة إلى بلده الأم، سيجد نفسه مرغماً على البحث عن سبيل يخفف عنه عذابه واحساسه بالذنب.

ـ لا عجب من أن يستولي الاكتئاب على جاك، وفي ظل هذه الظروف، أظن أن عودتك إلى ديارك جاءت في الوقت المناسب.

تصلب فكا غاب قبل أن يمسك كتفيها بيديه قائلاً: «ليتني لم أزجك في هذا الكابوس!».

ما الذي يحاول قوله؟ أتراه ندم على قراره المتهور بالزواج وانجاب طفل، بعد أن علم بمشكلة والده؟

إن خطر له أنها أضعف من أن تتحمل هذا الوضع، وقرر أن يضعها على أول طائرة عائدة إلى نيويورك، فعليه أن يعيد التفكير في الأمر.

رفعت ذقنها غروراً:

ـ هل نسيت أنك تركت لي حرية الاختيار؟. والحق يقال إنك رسمت لي صورة مروعة عما سأواجه بعد زواجي بك. وأظن أن أي امرأة أخرى كانت لتلوذ بالفرار، من دون أن تنظر وراءها. ولكنني لست أي امرأة أخرى، أنا أندريا...

وارتجف صوتها قليلاً: «فإن كنت تجد أن علاقتنا تسير في الاتجاه الصحيح، سأبقى هنا إلى أن يصبح التفاهم بيننا مستحيلاً».

أحست بأصابعه تنغرز في كتفيها، من فوق قميصها.

ـ رباه! لا معنى لحياتي من دون وجودك فيها يا أندريا.

غالباً ما يتغلب عليه طبعه، فيتفوه بعبارات فرنسية في مجرى الحديث، من دون أن يعي ذلك.

- لا تبعدني اذن عنك، ودعني أقف إلى جانبك.

جاءت كلماتها أقرب إلى التوسل.

- كنت محقاً بشأن جاك، فالبهجة تغمره منذ وصولك إلى المنزل، وتصرفاته أوحت إلي بأن وجودي مرحب به.

- الحمد لله!

وضمها بين ذراعيه القويتين، فأحست وكأنهما طوقين من فولاذ يحكمان قبضتهما عليها أكثر فأكثر. لم يكن عناقه أشبه بعناق حبيب لحبيبته، فهو يحتاج إلى شخص من خارج العائلة، يثق به ويفضي له بأسراره. ومن قال إنها قد تتذمر إن لم يكن يريد منها شيئاً سوى ذلك؟ فحبها الكبير له هو علة وجودها وحافزها على التضحية بكل شيء في سبيله.

- أظن أن جدك يعد لنا العشاء، عليّ أن أنزل لمساعدته.

- إنني واثق من أنه سيكون ممتناً لك.

قال لها ذلك ورأسه مدفون بين خصلات شعرها، ثم أردف قائلاً: «سأقوم خلال هذا الوقت بنزهة على الدراجة الهوائية، لا تقلقي، سأعود قبل موعد العشاء».

وعانقها عناقاً سريعاً قبل أن يغادر الغرفة على عجل، فأسرعت أندريا تلحق به إلى البهو. نزل غاب سلم المنزل المجهز بأثاث مريح، بخفة ولياقة رجل رياضي، وقد بدا مثيراً في بنطلون الجينز والكنزة الصوفية المحارية اللون اللذين ارتداهما على متن الطائرة، واللذين يبرزان عضلات جسده النابض بالرجولة. وتسارع نبضها... لن تجد في سان بيار أو في أي بقعة أخرى من العالم رجلاً يشبهه.

كان المطبخ والشرفة الخلفية متصلين بباب زجاجي، وهما يحتلان

القسم الواقع في مؤخرة المنزل، وبينما انهمك جاك في تحريك الطعام الموضوع في قدر على الموقد، راحت أندريا تراقب غاب وهو يختفي خلف المنزل، راكباً دراجة قديمة. أسرعت إلى النافذة التي تعلو الحوض، وبقيت نظراتها التوافة تلاحقه وهو يجتاز الطريق، إلى أن غاب عن عينيها. وإذا بها تشعر كأن يداً قبضت على قلبها بقوة، وقد تذكرت أنه لم يحدد لها وجهته، فما إن يملأ رئتيه من هواء المحيط، حتى تتحول نزهته إلى رحلة على درب الذكريات! وفجأة، أحست يد تربت على كتفها برقة.

- إنك تحبين حفيدي لشخصه، إنها نعمة من الله، لم أكن أنتظرها.

أدركت أندريا مغزى كلامه، فوحده المليونير يقلق حيال هذه الأمور. التفتت نحو جد زوجها، كان العجوز يعرف أسراره الماضية كلها، ولا حاجة للادعاء أمامه بما ليس له وجود!

- إنه حياتي كلها يا جاك، ولكنني لا أريد أن أخدعك، فهو لم يتزوجني عن حب.

رفع يده عن كتفها، ملوحاً لها بسبابته: «لكنه تزوج بك».

يبدو أن ذلك كافٍ في نظر جاك.

أجابته هامسة: «أجل، لكنه فعل ذلك ليساعدني على إنجاب طفل».

بدت امارات التسلية في عينيه البنيتين، فيما تابعت أندريا تقول: «صحيح أن انجاب الأطفال هو غاية الزواج الأسمى، ولكن الوضع يختلف في حالتي، فإن لم يحصل الحمل خلال ستة أشهر، علي أن أخضع لعملية جراحية أصبح بعدها عاجزة عن الإنجاب، ورأى غاب في الزواج بي، الطريقة الأنسب للتكفير عن الذنب الذي ارتكبه بحق جان ماري لسنوات طويلة خلت».

نظر في عينيها مذهولاً: «هل أخبرك عن الجنين؟».

هزت برأسها قائلة: «أعلم أنه ليس ابن ايف».

أخفض العجوز جفنيه وكأن حملاً كبيراً يثقلهما: «لم أعد واثقاً من ذلك!».

أحست أندريا وكأن صاعقة ضربتها وتركتها في حالة من الذهول الشديد، فيما أخذ قلبها يدق بسرعة.

- لمَ تقول ذلك؟

- انتظري قليلاً.

واستدار نحو الموقد مضيفاً: «آن الوقت لأضيف مكوناً مهماً».

على الرغم من الفضول الذي يتآكلها، لم تجد أمامها خياراً آخر سوى أن تتحلى بالصبر، ريثما يضيف جاك الخل إلى المزيج.

- يا لها من رائحة شهية!

- إنها وصفة زوجتي، وتعرف بحساء السمك على الطريقة البريطانية، هلا وضعت الخبز على الطاولة بينما أحضر الأطباق والأكواب؟

وجدت أندريا رغيفاً ذهبياً كبيراً موضوعاً على لوحة خشبية ملونة لتقطيع الخبز، فحملته إلى الطاولة المستديرة الموضوعة عند زاوية المطبخ، والتي فرش عليها غطاء أبيض مطرز بزهور برية، حمراء وصفراء وزرقاء!

- يا له من تطريز متقن! هل قامت زوجتك بتطريز الغطاء؟

- أجل، وستائر المنزل كلها أيضاً.

- منزلك جميل!

- تولت تزيينه بنفسها!

- كنت أتمنى من كل قلبي أن أتعرف عليها. حين سافرت مع غاب إلى باريس، قصدنا مطعماً يقدمون فيه بلح البحر، وأخبرني غاب أن مذاقه

يضاهي مذاق بلح البحر الذي كانت تعده زوجتك.

هز برأسه: «كان أحفادي... ما هي الكلمة التي يستعملونها للدلالة على الأكل فوق الحاجة؟».

- شراهة؟

- أجل، كانوا شرهين!

صحيح أنها كانت تنتظر تفسيراً للقنبلة المدوية التي رماها منذ بضع دقائق، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك: «قال لي غاب إنه كان الأكثر شراهة بينهم».

- كان غاب الأفضل في كل شيء، والأكثر وسامة.

أدركت أندريا أن ملاحظة جاك تحمل في طياتها معانٍ خفية، وتذكرت كلام فابريس عن زوجته التي كانت تفضل غاب عليه.

- جاك! هلا أوضحت لي معنى ما قلته منذ قليل؟

خيل إليها، في بادىء الأمر، أنه لم يسمعها، لأنه أبعد القدر عن الموقد، ولكنه ما لبث أن نظر إليها وأومأ لها لتجلس إلى الطاولة قبالته، ثم أحضر زجاجة عصير وصب كوباً لكل منهما.

- كان الوضع مثيراً للريبة، فمنذ زواجها بايف، وجان ماري تبذل كل ما بوسعها لتتفادى النظر في عينيّ. كانت زوجتي أول من ارتاب في الأمر.

استولى الذعر على أندريا، فسألته: «هل أخبرت والد غاب؟».

- حاولت ذلك، ولكنه رفض الاصغاء إلى أي كلام قد يشوه صورة جان ماري.

أخذ نفساً عميقاً ثم تابع كلامه قائلاً: «وأظن أن أسبابه وجيهة، فمع بلوغه العقد الثاني من العمر، اعتقد الجميع أن جيل سيتزوج من ايفانجلين دوبريكس، والدة جان ماري».

- أتقصد القول إن المرأتين؟

- أجل، وقعت المرأتان في غرام ابني وحفيدي، فجان ماري أحبت غابريال وايفانجلين أحبت جيل، ولكن القدر لعب لعبته، يوم وجد هذا الأخير نفسه محاصراً في مطار هاليفاكس، برفقة مسافرة أميركية جميلة ومثيرة مثلك، وقع في حبها من النظرة الأولى واصطحبها معه إلى الجزيرة لتقابل عائلته، ونتيجة لذلك، خيم الحزن على العائلتين، إذ كانت تربط ما بين سيسيل وايفانجلين صداقة حميمة ترقى إلى أيام الطفولة.

أفلتت منها تنهيدة أسى:

- وعلى الرغم من مرور وقت طويل على تلك الحادثة، لم تتوان جان ماري عن إخبار جيل بأن غاب هو والد طفلها ولكن جيل لم يجرؤ على تقصي حقيقة هذا الأمر، لأنه كان السبب في خيبة أمل والدتها.

أخذت أندريا نفساً عميقاً، وهي تقول: «لم يشأ أن يجرح مشاعر ايفانجلين ثانية، من خلال ابنتها، ولكن مستقبل غاب كان على المحك».

- هذا صحيح.

هز العجوز رأسه بحزن وتابع يقول: «سواء أكان الجنين ابن غاب أم ابن ايف، طلب ابني من غاب الابتعاد عن الجزيرة، لأنه خشي أن تدفعه شهامته إلى الزواج بجان ماري. كان جيل يعرف بأن ابنه لا يحبها، ولم يكن ليسامحه أبداً على زواجه من دون حب».

أغمضت أندريا عينيها. يبدو أن الوضع أكثر تعقيداً مما تخيلت، وبعد أن سمعت كلام جاك، أدركت مدى الحب الذي يكنه للرجلين.

- إن كان ظنك في محله، فذلك يعني أن غاب لم يكن الوحيد الذي عانى من جحيم الوحدة طوال هذه السنوات.

- بعد طلاقه من كارول، تحول جيل إلى إنسان محطم، وبعد رحيل

غاب، فقد الجميع طعم السعادة.

صرخت أندريا قائلة: «وكيف لهم أن يعيشوا في هناء؟ لم أتفاجأ أبداً حين علمت أنه أدمن شرب الكحول».

قطبت العجوز جبينه: «هل أنت على علم بالأمر؟».

- اتصلت ابنتك هيلين بغاب منذ قليل وأعلمته بالأمر، إنني واثقة أن ذلك ما دفعه إلى مغادرة المنزل على عجل، فالألم وعذاب الضمير اللذان يخيمان على أفراد عائلتك قد يدمرانها كلياً، لذا يجب أن نضع حداً لذلك.

مد يده يربت على ذراعها محاولاً أن يخفف عنها.

- جاك؟ هل مات حب جيل في قلب والدة غاب؟

- كلا، ولو كان الأمر كذلك لأخذت أولادها معها، فهي تأتي لزيارة أولادها وأحفادها مرة، أو مرتين كل شهر، وغالباً ما تلفت انتباهي الطريقة التي تنظر فيها إلى جيل، والنظرات التي يرميها هو بها. لم يتزوج أي منهما ثانية، على الرغم من أن ايفانجلين ترملت منذ أكثر من عشر سنوات، وبذلت قصارى جهدها لتعيد إحياء ذكرى الأيام الخوالي في قلب جيل.

- لمَ تطلقا اذن؟

- لم يناقش ابني هذا الموضوع معي، ولكن طلاقهما كان غلطة فادحة.

هل كانت ايفانجلين وراء انفصالهما؟ في مجتمع مترابط إلى هذا الحد، من الممكن أن تدفعها غيرتها إلى مضايقة والدة غاب وجعلها تشعر بأنها غير مرغوب فيها، مما قد يحدث صدعاً، يتسع أكثر فأكثر مع الوقت، فتجد والدة غاب نفسها عاجزة عن احتمال المزيد!

وتذكرت أندريا تحذير غاب لها في باريس، حين قال: «نادراً ما يتحمل الغرباء العيش وسط هذا المجتمع الضيق، حيث يتمسك الناس بما

يملكونه ويكسبون رزقهم من العمل في البحر. قد يضطهدك أفراد عائلتي، من خلال رفضهم التقرب منك، ومن الممكن ألا يقبلوا بك أبداً. فضلت أن أحذرك مسبقاً حتى لا تتفاجئي بعد الزواج، هذا إن وافقت عليه».

انتشلها صوت انغلاق باب وفتح آخر من شرودها لتجد غاب يدخل إلى المطبخ مسلطاً نظراته الاتهامية عليهما: «ما الأمر؟ التعابير البادية على قسمات وجهيكما تدل على أن أمراً خطيراً حدث خلال غيابي، ما الذي حصل؟».

سرعان ما هب جاك لنجدتها حين قال: «كانت زوجتك تعلمني بخوفها من ألا تتمكن من انجاب طفل!».

وشعرت أندريا بالامتنان كثيراً له، لكن عينا غاب راحتا تتأملانها بإمعان، قبل أن يقول: «لم يحن الوقت بعد للقلق حيال هذا الموضوع».

ابتلعت أندريا ريقها بصعوبة، ثم قالت: «اعلم ذلك!».

نهض جاك من مكانه:

- اغسل يديك يا بني، وتعال لتناول العشاء.

وفيما أسرع غاب ينفذ ما طلبه منه جده، انهمك هذا الأخير في صب حساء السمك في الأطباق.

لم تكد تمر عشرون دقيقة، حتى أنهوا تناول الطعام الشهي، فضلاً عن التحلية المكوّنة من جبنة وفواكه. وعلى الرغم من أن غاب استرسل في الحديث مع جده عن صيد الأسماك، إلا أن أندريا شعرت بأن تبرير جاك لم يرض فضوله. ولا بد أنه ينتظر بفارغ الصبر فرصة وجودهما معاً لوحدهما، ليستجوبها بقساوة.

لم تكن تنوي أن تخفي عنه شيئاً، بل على العكس، كانت متلهفة إلى مشاطرته كل ما سمعته، ولكنها لم تشأ أن تعيد فتح جروح لم تندمل قط،

خلال العشاء الأول لهما مع جده.

- شاهدت المصنع الجديد للأسماك، خلال النزهة التي قمت بها على الدراجة الهوائية.

أومأ جاك برأسه وهو يمضغ القطعة الأخيرة من تفاحته، ثم قال: «إنها معدات حديثة للتبريد أرسلت من بريست. آن الوقت لافتتاح مصنع مماثل، فالثلاثمائة وظيفة التي أمنها للسكان، شكلت فرقاً واضحاً بالنسبة إلى الأشخاص الذين ذاقوا الأمرين بعد منع صيد سمك السلمون ضمن نطاق اثني عشر ميلاً».

كانت أندريا على علم بالمشاكل الإقتصادية التي تواجهها سان بيار، بعد أن أفضى لها غاب بمكنونات قلبه، ولكن العون الذي قدمه غاب، ساهم في الحد من تأثيراتها الجانبية، لا سيّما وأن البحر هو مورد رزق السكان الوحيد.

ثم تابع جاك يقول: «بدأ برتراند وفيليب العمل كموزعين للشركة الجديدة، وأظنهما يتقاضيان راتباً محترماً!».

- ممتاز!

وظهرت على وجه غاب ابتسامة غريبة، ابتسامة أصبحت أندريا تعرفها جيداً، بعد أن عملت معه لستة أشهر، فقد شعر بالرضى لأن الجهود التي بذلها لمساعدة عائلته بدأت تجدي نفعاً.

- لا أظن أن زوجتيهما توافقانك الرأي، فهما لا تحبذان فكرة سفرهما.

- إلى أين يسافران يا جاك؟

- إلى المناطق التي يمكنهما أن يجدا فيها أسواقاً جديدة فأسواق كندا والساحل الشرقي للولايات المتحدة مشبعة، لذا ركزا اهتمامهما على

الزبائن الأميركيين في المناطق الداخلية.

- ما الذي يبيعانه؟

- شرائح سمك القد، والسمك المفلطح وسمك الموس، وسمك الفرخ، والقفالة.

- آه، كم أحب سمك الفرخ، إنه طيب المذاق، أنا واثقة من أن شقيقيّ غاب لن يواجها مشكلة في البيع لأصحاب المطاعم الصغيرة، من دون اللجوء إلى الوسطاء!

واسترسلت في طرح نظرياتها قائلة: «معظم الأشخاص الذين يقيمون في مناطق بعيدة عن المحيط، يحبون ثمار البحر، فحين تقوم مثلاً برحلة إلى المناطق الداخلية، تجد أن المطاعم تقدم القريدس المقلي، المغمس بمسحوق الخبز، مع أن طعمه أشبه بالكرتون، لأنه قبع، على الأرجح، في قعر الثلاجات، لسنوات عدة».

انفجر الرجلان بالضحك، وأومضت عينا غاب على نحو غير متوقع، قبل أن يقبض على يدها ويضغط عليها قائلاً: «زوجتي تملك ذهناً متوقداً. أظنك فهمت سبب تعييني لها مهندسة مسؤولة عن البرامج الإلكترونية، يا جدي».

أجاب جاك محاولاً إغاظتها: «من الأفضل ألا تدعها تقترب من ذلك المصنع، وإلا ستنشغل في إحداث ثورة كاملة فيه، فلا تراها بعد ذلك».

قال غاب وهو يداعب أصابعها: «مستحيل! فلدينا مشروع آخر سيأخذ وقتنا كله».

أثار تعليقه اهتمام جده فسأله: «ما هو يا بني؟».

- اشترينا منزلاً وعلينا أن نرممه.

- فهمت!

وظهرت علامات الأسى على قسمات وجهه. إذ لم تكد تمر بضع ساعات على وصولهما إلى الجزيرة، وها قد بدأ غاب بالتحدث عن الانتقال إلى منزل آخر.

- أين يقع هذا المنزل؟

- في سان بيار، وعلى مقربة من هنا!

استولى القلق على العجوز، ولاحظت أندريا أنه يبتلع ريقه بصعوبة، فقد كان يأمل أن يقيم غاب في منزله. شدت على أصابع زوجها، كأنها تتوسل إليه ألا يدع جده يترقب بقلق. تقابلت نظراتهما لبضع ثوانٍ، ثم أفلت يدها مولياً جاك انتباهه كله. قال الجد بصوت خافت بالكاد تمكنت أندريا من سماعه: «أظنك اشتريت منزلاً عند الطرف الآخر من الجزيرة، قرب المصنع الجديد».

- لمَ خطر لك ذلك؟

- لا أحد في هذه الناحية يبيع منزله لشخص من خارج نطاق عائلته!

مال غاب نحو جاك: «ألا تظنهم يقبلون باستثناء عن القاعدة من أجل حفيد صديق العائلة الحميم؟».

ترنح جاك في كرسيه، ثم راح يتأمل غاب بامعان قبل أن يقول: «اشتريت منزل غوركي؟».

- أجل، وقلت للسمسار أن يطلب من زوجة غوركي الاحتفاظ بهذا السر إلى حين رجوعي إلى الجزيرة.

ترقرقت الدموع في عيني جاك وأحست أندريا بأن لسانه انعقد عن الكلام، وأن قلبه امتلأ فرحاً، فرفع يديه ووضعهما على خدّي غاب، كما اعتاد على الأرجح، أن يفعل في الماضي ملتزماً الصمت. إنها لحظة من تلك اللحظات الجميلة التي ستبقى حية في ذهن أندريا إلى الأبد.

ـ ما رأيك لو ترافقنا في نزهة، في سيارتنا الجديدة، بعد أن تنهي غسل الصحون؟ أريد أن أعرّف أندريا على الجزيرة قبل غروب الشمس.

سألته متلعثمة: «أي سيارة جديدة؟».

التفت غاب نحوها، فبدا في عينيه بريق ندي بسبب تأثره الشديد، وقال: «تلك السيارة المركونة أمام المنزل. اشتريتها الأسبوع الماضي وطلبت منهم أن يجهزوها لي عند وصولي».

ـ ألهذا السبب خرجت في نزهة على الدراجة؟

صحيح أنه يحتاج للتنفيس عن غضبه قليلاً، ولكنها أحست بالارتياح وقد علمت أنه غادر المنزل لسبب محدد. نهض جاك من مكانه وقد بدت الحماسة على وجهه: «اذهبا واستمتعا بوقتكما قبل أن يحل الظلام، سأنظف المطبخ وأذهب بعدها لأتسامر مع كارميل».

رفعت أندريا الصحون عن الطاولة، ثم صعدت إلى غرفتها لتمشط شعرها وتضع القليل من أحمر الشفاه.

لم تجد أمامها متسعاً من الوقت لتبدل البنطلون القطني ذا اللون الأخضر الزاهي والقميص البيضاء، اللذين ارتدتهما على متن الطائرة، وأسرعت تنزل إلى الطابق السفلي، وتخرج من المنزل لتنضم إلى غاب. ولما دنت منه، ساعدها على الصعود إلى السيارة العائلية الزرقاء اللون، ذات الأربعة أبواب.

لا شك أن إمكانيات زوجها المادية تخوله شراء كل ما يحلو له، إلا أنه أظهر بعض التحفظ في اختياره هذه المرة، فالسيارات الرياضية الخاطفة للأبصار التي اعتاد أن يقودها، يفوق ثمنها إيراد معظم سكان الجزيرة السنوي، كما أنها لا تتلاءم مع المكان.

ما إن جلس غاب خلف المقود وأدار محرك السيارة، حتى وجدت أندريا نفسها تطلق العنان للسانها: «جعلت من جدك رجلاً جديداً، ليتك

اتخذت قراراً بالعودة إلى سان بيار قبل موت جدتك».

رماها غاب بنظرة حادة قائلاً: «لو فعلت ذلك، لما التقيت بك».

حبست أندريا أنفاسها، ثم قالت: «لا داعي لأن تجاملني حين نكون لوحدنا».

أجابها بنبرة باردة: «من قال لك إنني أجاملك؟».

ـ هذا ما تفعله، فجدك يظن أننا تزوجنا عن حب، وكلانا يعلم أن ذلك غير صحيح.

أحكم قبضته على المقود: «قلت لك في باريس إننا نتبادل الثقة والاحترام، وإنك المرأة الوحيدة التي فكرت باصطحابها معي إلى ديارى، وكلما تقربت منك أكثر، كلما ازداد يقيني بأنك ستكونين أماً رائعة لطفلنا».

أخفضت رأسها وردت بصوت مرتعش: «إن رزقنا الله بطفل».

ـ لا داعي للقلق حيال هذا الأمر.

بدا عليه التوتر أكثر منها، لكنه غيّر الموضوع فسألها: «عمَّ كنت تتحدثين مع جدي عند وصولي؟».

توقعت أندريا أن يطرح عليها هذا السؤال، وأقرت في سرها أن جاك أراد أن يشاركها شكوكه كلها، حين أفضى إليها بتلك الأسرار الخاصة. وفي الواقع، بدا جلياً أنه أخبرها ما أخبرها به، على أمل أن تنقله إلى غاب، وها أن الفرصة تدق بابها.

ـ يظن جدك أن جان ماري كذبت حين ادعت أمام والدك أنها تحمل طفلك.

ما إن تفوهت بتلك الكلمات حتى ضغط غاب على المكابح بقوة، فتأرجحت السيارة في مكانها قرب الحائط الحجري الذي يفصل الطريق عن المياه الراكدة، ولحسن حظهما، لم تمر أي سيارة في المكان في تلك

اللحظة. وعلى الرغم من أن الشفق ألقى بظلاله الحمراء على الضواحي الساكنة، التي لم يكن يخرق سكونها إلا صوت عوامة لإرشاد السفن تطفو في المياه البعيدة، أحست أندريا بعاصفة الغضب التي كانت تحتدم في داخله. رفع يده يبعد خصلات شعره الأسود المتموج عن وجهه قائلاً: «متى بدأت تراوده هذه الشكوك؟».

بدا صوته وكأنه ينبعث من أعماق كهف تحت سطح الأرض. إنه السؤال الأول الذي انتظرت رد جاك عليه بفارغ الصبر، بعد أن ائتمنها على سره، فأسرعت تسرد لغاب ما قاله لها، من دون زيادة أو نقصان، غير أنها لم تستطع أن تقرأ تعابير وجهه بوضوح، إذ لم تكد تنهي كلامها حتى بدأ الليل يسدل ستاره.

- أتقصدين القول إن جدي يظن أن والدي طلب مني الابتعاد من هنا، خشية أن أتزوج جان ماري بدافع من إحساسي بالواجب تجاهها؟

- أجل وقد أخبرني جدك قصته مع ايفانجلين، فعند زواجه من والدتك وتخليه عنها، ظهرت بعض المشاكل، ولكنني أجد أن خوف والدك من ارتباطك بامرأة لا تحبها، منطقي، نظراً لما مر هو به. والحق يقال إنه أراد مساعدتك ولكن على طريقته.

سمعته يطلق شتيمة مريعة. قبل أن يقول لها: «لا أعرف أين تكمن الحقيقة، ولكنني سأحرص على البحث عنها».

وأسرع ينعطف بالسيارة، عائداً إلى المنزل.

- اعذريني يا أندريا، ولكن علينا أن نؤجل النزهة في الجزيرة إلى وقت لاحق.

أجابته هامسة: «لا عليك، علي أن أفرغ الحقائب».

- سأعود في ساعة متأخرة من الليل، فلا داعي لانتظاري.

- لن أفعل.

نزلت من السيارة والألم يعتصر فؤادها، وقبل أن يتسنى لها اقفال بوابة المنزل، سمعت صرير الدواليب، فيما انطلق غاب في السيارة ينهب الأرض نهباً.

شعرت بحزن عميق وهي تدرك أن الهاجس الذي سيطر على عقلها، وهما في الطائرة، تحول إلى حقيقة، فهذه الليلة لن تكون شبيهة بليالي العشق والهيام التي قضتها في منزل والديها في سكارسدال. وأحست بالارتياح حين أدركت أن جاك لم يعد بعد إلى المنزل ليرى وجهها المتلألىء بالدموع.

* * *

لطالما كانت حانة البحار الصغير، مرتع الزبائن الكبار في السن. وكم كانت دهشة غاب عظيمة حين رأى اللافتة الخشبية، التي رسم عليها بحار صغير جالس على أحد الأرصفة، يلوح برجليه، لا تزال تتدلى من السقيفة الأمامية، فوق الباب.

دخل غاب إلى الحانة، ليجدها على حالها، على رغم السنوات الطويلة التي مرت عليها.

راح النادل يحدق به بامعان، محاولاً أن يتعرف عليه، وقد بدا له وجهه مألوفاً، وبعد برهة رحب به قائلاً: «ماذا تريد أن تشرب؟».

- إنني أبحث عن جيل كورين، ولكنني لم ألمحه هنا.

تردّد الرجل قليلاً ثم قال هامساً: «هذا غريب، اعتاد على ارتياد الحانة كل مساء، في مثل هذه الساعة، ولكنني لا أرى له أثراً هذا المساء».

- شكراً لك!

ووضع عشرين فرنكاً على الطاولة ثم غادر الحانة، قبل أن يبدأ الرجل

بطرح أسئلة، لا ينوي غاب الرد عليها.

صعد إلى سيارته وتوجه إلى قسم آخر من الجزيرة، حيث ترسو سفن صيد الأسماك الكبيرة. كان الظلام حالكاً، والقوارب كلها في مكانها، بما فيها مركب والده الذي يرسو قرب الرصيف.

ركن غاب سيارته وترجل منها، ثم صعد السلم الاسمنتي، واجتاز اللوحة الخشبية وصولاً إلى قارب «القبرة».

كان معظم الرجال قد عادوا إلى بيوتهم. ولم يتبقَ إلا البعض منهم ينجز أعماله الروتينية، استعداداً لرحلة الصباح، ويتبادل أطراف الحديث. وما إن وقعت عيناه على «القبرة» حتى تدافعت الذكريات في رأسه.

بدا القارب مهجوراً، ولكن ذلك لا ينفي امكانية وجود والده فيه. صعد إلى القارب، ثم نزل السلم المؤدي إلى المقصورة، وهو يتوقع أن يجد والده جالساً هناك. كان السكون يلف المكان ولا يخرقه إلا صوت تكسر الأمواج على هيكل السفينة.

- أبي!

بحث عنه في حجرة النوم، ولكن دون جدوى.

لم يشأ غاب أن يواجهه في المنزل، فبعد أن تدهورت الأوضاع الاقتصادية، انتقل فيليب وعائلته للعيش مع والده، ولعل إدمان والده على الكحول، كان سبباً من الأسباب التي حثت شقيقه الأصغر على اتخاذ هذا القرار.

من الأفضل أن يعود غداً عند الفجر ليقابل والده بمفرده، فمن المعروف عن جيل أنه يحب النهوض باكراً من فراشه، ولكن، أترى عاداته تغيرت بعد إدمانه على الكحول مدة طويلة؟

شعر غاب بالهزيمة، فرجع إلى سيارته وانطلق عائداً إلى منزل جده.

لو كان الوضع مختلفاً، لسار بمفرده على شاطىء البحر حتى انبلاج الفجر، ولكن أندريا تنتظره، وجلّ ما يحتاج إليه هذا المساء، هو أن يرقد بين ذراعيها، ويبادلها العناق.

لعل أكثر ما يخشاه غاب هو أن تتغير الأمور بينهما بعد مرور ستة أشهر، حين تجد أندريا نفسها إمّا حاملاً أو مجبرة على الخضوع للعملية. عليه أن يجد سبيلاً ليجعلها تقع في حبه، إلا أنه لم يحسن معاملتها في الأونة الأخيرة. لقد اصطحبها إلى أرضٍ غريبة، بعيداً عن أهلها وعملها، والحياة التي اعتادت عليها، ثم تركها ليبحث عن الرجل الذي منعه من العودة إلى أرضه. يا له من وحش مخيف!

فبعد سنوات الغربة الطويلة من المستحيل أن يعيد الأمور إلى نصابها، بين ليلة وضحاها. ولكن أندريا زوجته، وعليه أن يبذل كل ما بوسعه ليساعدها على التأقلم مع هذه الحياة الجديدة، وإلا خسرها قبل أن تنقضي فترة الستة أشهر.

لن يدع ذلك يحصل، من المستحيل أن يدع ذلك يحصل.

ما إن بلغ منزل جده، حتى ركن السيارة إلى جانب الطريق، وهرع إلى المنزل يبحث عنها.

٦ ـ الإبن سر أبيه

لم تكد أندريا تنتهي من إفراغ حقائبها والاستحمام، لتندس بعدها تحت أغطية فراشها، حتى سمعت باب الغرفة يُفتح، ورأت في ظل النور الخافت المنبعث من الرواق السفلي، قامة زوجها الطويلة، وبنيته القوية.

لم تتوقع أن يعود غاب باكراً، بعد أن قال لها إنه ذاهب لمقابلة والده. في الواقع، لم تكن لتتفاجأ أبداً لو أنه عاد إلى المنزل صباح اليوم التالي. فقد مرت سنوات طويلة على فراقهما وعليهما أن يسترجعا كل ما فاتهما.

أحست أندريا بأن هناك خطباً ما.

نادته مذعورة وهي تجلس في سريرها، متكئة إلى رأسه الخشبي: «غاب!».

ـ ابقي حيث أنتِ يا حبي!

وأغلق الباب خلفه: «دقائق وأنضم إليك».

فاجأتها لهجته الودودة، ففي ليلة زفافهما طلبت منه ألا يناديها «حبيبتي» ثانية، ولكن غاب لا يسمح بأن يعيقه عائق، فارتد إلى الفرنسية، محاولاً خداعها. بدا لها في تلك اللحظة، مختلفاً تماماً عن الرجل الذي فقد السيطرة على أعصابه منذ بعض الوقت، فالرجل الذي وقعت في حبه، لم يعتد على التصرف على هذا النحو، ولا شك أن تصرفه الآن ينبع من المشاعر العميقة التي تدمي قلبه.

استلقت أندريا في فراشها من جديد، تنتظره لينهي استحمامه،

والأفكار تتضارب في رأسها. حاولت أن تضع نفسها مكانه، إلا أنها لم تفلح. بقي القلق مسيطراً عليها إلى أن أحست به يندس قربها في الفراش، ويدنو منها بلهفة ألهبت مشاعرها.

خطر لها أنه يريد أن يفضي لها بمكنونات قلبه ولكنه فضل أن يرجىء ذلك إلى وقت لاحق، ريثما يطفىء شوق جسده إليها.

قال لها هامساً، فيما كان يؤرجحها بين ذراعيه: «أعتذر عن فظاظتي بعد ظهر اليوم».

ـ لا داعي للاعتذار، فالأخبار التي سمعتها مزقت قلبك، أتظنني لا أعلم ذلك؟

ـ ولكن ذلك لا يبرر معاملتي لك بقسوة.

ـ لم تُسىء التصرف يا غاب، فالألم كان يعتصر فؤادك.

ـ أعدك بألا يتكرر ذلك ثانية، فأنت الشخص الوحيد الذي لا أقوى على جرح مشاعره.

ما الذي أصابه بحق الله؟

أجابته مطمئنة: «أنت لم تجرح مشاعري. والآن، أخبرني بما جرى معك هذا المساء».

شد ذراعيه حولها قائلاً: «بحثت عن والدي في المكان الذي خيل إلي أنني قد أجده فيه، ولكنني لم أتوقع أن يبقى في المنزل هذا المساء، وهو يعلم جيداً أنني لست متهوراً إلى هذا الحد لأذهب لرؤيته هناك».

فركت أندريا قفا عنقه بيدها: «لعله كان يأمل أن تقصد منزله قبل أي مكان آخر».

أطلق غاب تنهيدة عميقة، ثم انقلب إلى الجانب الآخر واستلقى على ظهره:

- أتقصدين القول إنه كان ينبغي عليّ أن أتوجه من المطار مباشرة إلى منزله، وأرغمه على مواجهة مخاوفه؟

مالت أندريا نحوه قائلة: «كلا، لا أسمح لنفسي بأن أفرض عليك شيئاً، ولكنني كنت أفكر بصوت مرتفع».

- سواء أكنت تقصدين ذلك أم لا، فقد جعلتني أتخذ قراري.

قفز قلبها من مكانه وسألته: «وما هو؟».

- خطر لي أن أقصد المرفأ قبل بزوغ الفجر وأنتظره قرب زورقه، ولكنني قد ألتقي بزملائه من الصيادين، الذين يخرجون باكراً لصيد السمك، فينتشر الخبر بسرعة البرق، ويعلم بأمر وجودي في المرفأ قبل أن يتسنى لي مقابلته أو مقابلة أحد من أخوتي. ولا أحبذ، بعد هذه السنوات الطويلة من الغربة، أن أضعهم في موقف حرج أمام أصدقائهم، لذا قررت يا حبي، أن نقضي النهار كله معاً، وعند المساء، نذهب لزيارة والدي في منزله مثل أي عروسين جديدين متلهفين للقاء أفراد العائلة، مهما كانت العواقب.

وأمسك غاب بيدها وقبل راحتها، ثم قال: «قبل أن نبدأ جولتنا السياحية غداً، سنمر على المستشفى لنأخذ موعداً مع أفضل طبيب نسائي هنا».

- ولكنني في أفضل حال!

- أعلم ذلك، وأريدك أن تبقي كذلك، إلا أنني أفضل أن تتعرفي على طبيبك منذ الآن، ألا توافقينني الرأي؟

- بلى، طبعاً، أشكرك على ذلك.

قاطعها قائلاً: «وجدت نفسك مرغمة على حل مشاكلي الخاصة، ولكن آن الأوان لنركز اهتمامنا على صحتك، وصحة الطفل المنتظر، إن لم

يخب ظني. أعتقد أن جدي حدد لنا موعداً مع كارميل، لنلقي نظرة على المنزل من الداخل، ونختار غرفة الطفل».

لم ينسَ غاب للحظة واحدة لهفته إلى انجاب طفل، وأحست بأنه سيصاب بالإحباط مثلها إن لم يحصل ذلك في وقت قريب.

- ما الذي تفكرين فيه، سيدة كوربن؟

أخذت نفساً عميقاً: «أمور كثيرة!».

- لا بأس، مادمت لم تبتعدي عني مقدار ذرة، تعالي.

قال لها ذلك بصوت أجش مثير، ثم انهال عليها بعناق حار فوجدت نفسها فريسة نشوة، لم تعرفها إلا بين ذراعي زوجها، وتمنت في سرها لو أن هذه الليلة تدوم إلى الأبد.

سمع غاب طرقاً خفيفاً على باب غرفة النوم.

- بني؟

ابتعد عن زوجته التي كانت تغط في نوم عميق ورفع رأسه قليلاً، وإذا به يسمع صوت جده: «غابريال!».

لم يكن يحلم، فجده يناديه حقاً، كم الساعة الآن؟ ألقى نظرة عجلى على ساعة يده، إنها السابعة إلا ربعاً صباحاً، لا بد أن جاك ذاهب لصيد السمك ويريد أن يعلمه بالأمر، ولكن، لِمَ لم يترك لهما رسالة صغيرة؟ نهض من السرير بخفة، وتوجه إلى الحمام على رؤوس الأصابع، ولبس عباءته، ثم لف الحزام حول خصره بإحكام وغادر الغرفة بهدوء، مغلقاً الباب خلفه.

وما إن التقت عيناه بعيني جاك حتى أدرك أن الأمر خطير.

وضع جاك يده على ذراعه قائلاً: «جيل ينتظرك في الأسفل، أما أنا فسأذهب إلى الفرن».

من بين السيناريوهات المختلفة التي خطرت على رأسه، لم يتوقع أبداً أن يأتي والده لرؤيته على حين غرة، فأحس غاب بنفسه مخدراً من وقع المفاجأة، ولحق بجده على السلم كأنه يسير في نومه.

ما إن لمحت عيناه والده من أعلى السلم، حتى شعر غاب في سره بالامتنان لجده، على تزويده بصور حديثة له، فلو لم يفعل، لأصيب بالذهول عند رؤيته والده الذي لم يتجاوز الستين من العمر، وقد بدا أكبر من سنه بعشر سنوات. وأخذت تتردد في رأسه، التعليقات التي رددتها والدته على مسمعه مراراً، حول وسامة جيل، وانجذابها إلى شكله الأشبه بشكل سكان بلاد الغال. ووجد نفسه يسبر أغوار ذكريات قديمة أدمت قلبه، كأنها سكاكين تمزقه إرباً إرباً، فلم يلاحظ بأن جده اختفى من أمامه، وجلّ ما لفت انتباهه نظرات الخوف والتوسل البادية في عيني والده البنيتين.

- غابريال!

ناداه والده همساً بصوت متقطع، وتابع يقول: «لديك كل الحق بأن تحتقرني، ولكنني أريدك أن تعلم أن الشوق إلى ابني كان يمزق فؤادي في كل لحظة مرت علي وأنت بعيد عني».

وراحت ذقنه ترتجف فيما انهارت الدموع غزيرة على خديه المتوهجين، فاستند إلى الدرابزين حتى لا يقع أرضاً. وأدرك غاب أن العذاب قضّ مضجع والده أكثر بكثير مما كان يتخيل.

تابع نزول السلم ليصل إلى حيث كان والده واقفاً في البهو.

- لا أستحق شيئاً يا بني، غير أن الله أطال في عمري لتراك عيناي ثانية، وأمتع نظري برؤية هذا الرجل الرائع الذي أصبحت عليه. يمكنني الآن أن أموت بسلام.

استولى الأسى على غاب، ليحل محل الحذر الذي تملكه للحظات قليلة وشل تفكيره، فسأله: «ولمَ تتمنى الموت؟».

- لأنني خذلتك في الوقت الذي حسبت فيه أنني أفعل ما فيه خير لك.

منذ سنوات طويلة، وغاب يخال أن والده طرده من حياته، دفاعاً عن ايف، ولكن أندريا أرغمته على التفكير ملياً في كلام جده، إذ لم يخطر على باله قط، أن والده أبى أن يتزوج جان ماري بدافع الواجب فحسب، أترى زوجته كانت على حق؟

- إنني أصدقك يا أبي!

ذهل والده لدى سماعه إصرار غاب:

- ولكنني ألحقت بك الأذى، وسببت لك الألم، مع أنني لم أكن أقصد ذلك، اشتقت إليك كثيراً، ليتني أستطيع أن أعود بالزمن إلى الوراء.

وغص والده بالبكاء، فحطم نشيجه فؤاده.

- صحيح أن الزمن لا يعود إلى الوراء، ولكن الحياة لا تزال أمامنا لنعوض كل ما فاتنا.

رفع والده رأسه فجأة، فحركت أمارات الذهول البادية على قسمات وجهه الحزين، مشاعر غاب أكثر فأكثر. وحاول غاب أن يبتلع ريقه ولكن من دون جدوى، وقال بعد جهد: «فالماضي ولى، ولم يعد بوسعنا أن نغير شيئاً فيه. عدت اليوم إلى الجزيرة لأبقى فيها، لأنها موطن عائلتي وأريد تأسيس عائلة بين أحضانها».

رفع والده يده وكأنه يحمي عينيه من أشعة الشمس الساطعة، ثم قال: «ولكنك تتمتع بنفوذ كبير، ومسؤولياتك كثيرة، فما الذي ستفعله هنا؟».

اعتصر الألم قلب غاب وهو يرى أمامه والداً محطماً، عاجزاً عن مسامحة نفسه.

- هل توقفت عن حبي يا أبي؟

ترقرقت الدموع من عيني والده لتسيل غزيرة على خديه وقال: «أحبك

كثيراً، وحبي لك هو سبب عذابي».

انطبعت كلماته في قلب غاب فقال بدوره: «وأنا لم أتوقف يوماً عن حبك يا أبي».

ـ غابريال!.

بدت صرخة الذهول أشبه بالأنين، فهرع غاب ليبادله العناق، ممطراً خديه بقبلاته الحارة، وتوسلاته الصادقة بأن يسامحه بعد هذه السنوات الطويلة.

ـ لِمَ تطلب مني السماح يا أبي؟ فاللوم يقع عليّ وحدي، لأنني اخترت أن أبقى بعيداً طوال هذه المدة، فكبريائي منعتني من الاتصال بك.

هز والده برأسه: «كنت تظن أنني توقفت عن حبك، فخشيت أن أصدك إن حاولت الاتصال بي. ومن جهتي، كنت خائفاً من الضرر الذي سببته لك من دون قصد، ووجدتك أفضل حالاً بعيداً عني، فقاومت رغبتي الشديدة في الاتصال بك، ولكنني كنت أتحرق شوقاً لسماع صوتك، في كل يوم، في كل ساعة. فجعلت من جدك صلة وصل بيننا، أهرع إليه كلما بلغ الشوق إليك مني مبلغاً».

شعر غاب بغصة في حلقه، وقال: «وأنا أيضاً استعملت جدي بالطريقة عينها لأعرف منه أخبارك. أظن أن أوراقنا كشفت كلها الآن، وعلي أن أسترجع مكانتي كفرد من أفراد هذه العائلة، إنني واثق من أنك ستحب أندريا».

ـ أندريا!

وما إن تفوه والده باسمها، حتى أدرك أن هذا الأخير يجهل أموراً كثيرة، فسأله: «كيف علمت بأمر عودتي؟».

حول والده نظره عنه ثم قال: «عدت البارحة إلى المنزل في ساعة

متأخرة، وإذا بوالدي يتصل بي ليبلغني برجوعك».

شعر غاب بالامتنان الكبير لجده. وقال: «اسمح لي أن أكون أول من يزف إليك الخبر السعيد، لقد أحضرت معي عروسي. منذ ستة أشهر، جاءت أندريا تطلب عملاً في الشركة، وخلال المقابلة الأولى، أحسست بشيء تجاهها لم أشعر به تجاه أي امرأة أخرى، فعينتها مهندسة مسؤولة عن معدات الكومبيوتر. غير أن ذلك لم يشبع رغباتي، فتزوجتها منذ عشرة أيام في نيويورك».

ـ أحسنت!

وعانق غاب من جديد، ودموعه لا تزال تنهمر على خديه. ثم قال وهو يمسح عينيه: «هل علمت أمك بالأمر؟».

ـ أجل، اتصلنا بها الأسبوع الماضي، خلال إقامتنا في منزل والدي أندريا، ووعدتني بأن تأتي للتعرف عليها بعد أن نستقر في منزلنا الجديد.

ـ منزلكما الجديد؟

حكّ رأسه وعاد يسأله: «هل ستفتح فرعاً لشركتك في الجزيرة؟».

أدرك غاب أن الأمر سيتطلب منه بعض الوقت، فقال: «ما رأيك يا أبي، لو ندخل إلى المطبخ ونشرب فنجاناً من القهوة، ثم أشرح لك كل شيء؟ علينا أن نستعيد ما فاتنا طوال هذه السنوات، كما أنني أريد أن أناقش معك مسائل هامة، تتعلق بمستقبل الجزيرة».

ومضت عينا جيل بوميض غريب، ثم سار مع ولده جنباً إلى جنب، وتوجها بصمت إلى الجهة الخلفية من المنزل، فوجدا أن جاك قد أعدّ لهما القهوة مسبقاً. أخذ غاب ما تبقى من الخبز، من مساء البارحة، ووضعه على الطاولة، فيما أحضر والده الفناجين من خزانة المطبخ، ذلك المطبخ الذي لم يكن بالغريب عنه، وقد مرت عليه ثلاثة أجيال من آل كورين.

راح غاب يراقبه وهو يغمس البريوش في السائل الساخن، كما اعتاد أن يفعل في الماضي، ولعل هذه الحركة بعثت إلى رأسه بالكثير من الذكريات، إلا أنها لم تحمل معها آلاماً مبرحة. شعر وكأن صداقة حميمة بدأت تربطه بهذا الوالد الجديد، إذ زال من جهته، إحساسه بالذنب، لاختلافه عن إخوته، في حين زال خوف والده منه، ويبدو أن افتراقهما الطويل عن بعضهما البعض، حقق انجازاً تعذر عليهما تحقيقه خلال السنوات الثماني عشرة الأولى، التي عاشا خلالها معاً.

ـ سننتقل أنا وزوجتي للعيش في منزل غوركي، فور رحيل كارميل.

بدا والده سعيداً وهز برأسه غير مصدق ما يسمعه.

ـ علينا أن نستقر في أسرع وقت ممكن، فأندريا تعاني من مشكلة صحية، أريد أن أخبرك عنها، فضلاً عن مسألة تأقلمها مع محيطها الجديد. تذكر جيداً كم كان الأمر صعباً على أمي، ما رأيك لو تعطيني بعض النصائح لأساعد زوجتي كي تألف هذا المكان؟

على الرغم من أنه ناقش وضع أندريا الصحي مع والدته، على الهاتف، وجد راحة كبيرة في الإفضاء بسره إلى والده. حدق به جيل بعينين خاليتين من الريب: «أتريدني أن أنصحك وأنت تعلم جيداً أن والدتك هجرتني؟».

ـ أجل.

همهم والده ساخراً: «ولكنني خذلتها أيضاً يا بني».

ـ كيف ذلك؟

كان غاب على بعد خطوة من معرفة السبب الحقيقي للذي يكمن وراء طلاقهما، غير أن والده رد عليه متوسلاً: «لا تسألني!».

استيقظت أندريا من سباتها لتجد السرير فارغاً، فبعد ليلة طويلة

تفجرت فيها مشاعر مجنونة بينهما، مشاعر لا تعرف الارتواء، خارت قواها ووقعت فريسة للنوم العميق، ولا بد أن غاب أبى أن يزعجها باكراً، وهو يدرك مدى حاجتها للراحة.

استغلت فرصة وجودها لوحدها، لتغسل شعرها، وترتدي ملابس جديدة استعداداً لمرافقته في جولة سياحية في الجزيرة، فاختارت فستاناً صيفياً قصير الكمين، لونه أزرق مائل إلى البنفسجي، عليه أزهار بيضاء اللون، وانتعلت صندالاً أبيض يتناسب معه.

تناهت إلى مسمعها، وهي تنزل الدرج، أصواتاً ذكورية، ومع أنها لم تفهم شيئاً مما كان يقال، بدا لها جلياً أن الأحاديث المتبادلة سارة. فأسرعت تدخل المطبخ، ملقية تحية الصباح، وفي داخلها لهفة لمجاراتهما.

ـ صباح الخير جاك.

نهض الرجلان من مكانهما، وسلط غاب نظرات عينيه الرماديتين عليها، فأحست بقلبها يتخبط بين ضلوعها، غير أنها لم تدرك خطأها إلا بعد أن حولت نظرها إلى جده، فالرجل الذي يقف أمامها أصغر سناً من جاك، وصوره منثورة في أرجاء غرفة الجلوس. أطلقت أندريا صرخة خافتة، عجزت عن كبحها.

ـ حبيبتي، أقدم لك والدي جيل، أبي، أعرفك على نصفي الآخر، أندريا.

من المؤكد أن هذه الألفة المفاجئة بينهما، هي ثمرة أعجوبة ما، ولكن عليها أن تتحلى بالصبر، إلى أن يصبحا لوحدهما، ليتمكن غاب من إخبارها بكل شيء.

رحب بها الرجل المتقدم في السن وعانقها بحرارة وهو يقول: «يبدو أن الولد سر أبيه!».

قال لها ذلك بنبرة مفعمة بالعواطف الصادقة، ثم تابع يقول: «إذ إن المرأة الأميركية الجميلة وحدها، تحمل مفتاح قلبينا».

إنه على خطأ، من دون أدنى شك، فمفتاح قلب غاب لا يزال ضائعاً، ولكن هذه اللحظة ليست ملكها، إنها ملك والد وابنه التقيا بعد سنوات طويلة من العذاب. تملكتها رغبة جامحة بالبكاء فرحاً وقالت: «شكراً لك».

وراحت تتأمل آثار سنوات الحزن البادية على خطوط وجهه الوسيم، الذي أورث وسامته لابنه:

- انتظرت هذه اللحظة بفارغ الصبر، فغاب شخص مميز، وكنت واثقة من أن والديه رائعين!

فيما كان جيل يحدق فيها، محاولاً أن يفهم جيداً كلامها، أخذ يرفرف بعينيه، متفاعلاً معها، ثم قال: «علينا أن ندعو العائلة كلها للاحتفال بعودتك يا بني».

بدا صوته أجش من شدة التأثر، ثم تابع يقول: «يجب أن يتعرف الجميع على أندريا».

أحاط غاب كتفيها بذراعه وشدها إليه قائلاً: «اتصلت عمتي هيلين مساء البارحة، واقترحت علي الفكرة عينيها، فقلت لها إنني أفضل أن أتريث قليلاً، ريثما أتحدث معك».

هز والده برأسه: «سأتصل بها بعد خروجكما معاً للتجول في الجزيرة، وأتفق معها على أن تجتمع العائلة كلها في منزلها عند السابعة مساءً».

صرخت أندريا متلعثمة وهي تراه يستعد لمغادرة المطبخ: «لا تذهب! أمامنا أشهر طويلة، يمكننا أن نجول خلالها في الجزيرة».

- بل سنوات طويلة!

وذهلت لدى سماعها نبرة زوجها الحادة وهو يصحح كلامها. يبدو أن غاب يود أن يثبت للعالم كله أنهما متحابان، ولن يفرق بينهما إلا الموت.

- ولكن ايف ينتظرني عند مركب الصيد، أما بالنسبة إليك، أخبرني غاب عن حالتك الصحية، لذا عليكما أن تمرا إلى المستشفى هذا الصباح، فالدكتور ماريس أخصائي بارع في الأمراض النسائية، أنقذ لوسي من المشاكل التي واجهتها خلال حملها، ستكونين حتماً. في أيدٍ أمينة.

- أعاد كلامك الطمأنينة إلى قلبي يا سيد كوربن.

- أرجوك، ناديني جيل أو أبي!

أربكتها نظراته المتوسلة، فقالت على الفور: «حسناً يا أبي».

- شكراً يا حلوتي.

وعانقها من جديد، قبل أن يعانق ابنه بعاطفة أبويه خالصة، وإذ تقابلت نظراتها بنظرات غاب، قرأت فيهما رقة لم تعهدها من قبل، رقة ألهبت حواسها!

- سنرافقك إلى الخارج يا أبي!

قبل أن يصل جيل إلى سيارته المركونة خلف سيارة غاب، أمام المنزل، وصل جاك راكباً دراجته، حاملاً رغيفي خبز، فتوقف إلى جانب الطريق ليتحدث مع ابنه، وإذا بهذا الأخير يهرع إليه ويعانقه بقوة، قبل أن يتسنى له النزول عن دراجته.

وجدت أندريا نفسها عاجزة عن وصف إحساسها وهي ترى بأم عينها العائلة تلملم جراحها، وتجمع شملها.

- إنني سعيدة من أجلك يا غاب.

ثبت غاب يده على وركها، وقال: «إنها الخطوة الأولى في الاتجاه

الصحيح، ولكنني لم أعد واثقاً من حقيقة ما حصل خلال السنوات الماضية. لحسن الحظ أنني عدت إلى دياري، ولن يهدأ لي بال قبل أن أرفع النقاب عن الحقيقة كاملة».

بعد أن فكرت أندريا ملياً في الموضوع، تبين لها أن جاك كان وراء مجيء جيل إلى المنزل، وجاك هو من أثار شكوكها حول أبوة الجنين، لتنقلها بدورها إلى غاب. ولو لم يمد لهما العجوز يد العون، لبقي غاب ووالده عالقين في طريق مسدودة.

أحست أندريا بالامتنان نحوه، على الرغم من أن السعادة التي كانت تغمرها تبخرت بعد أن رأت غاب يتسلح بأسئلة جديدة يريد أجوبة عليها، فمن المؤكد أنه لن يعرف الراحة هذه المرة خلال بحثه عن الحقيقة.

لعب غاب، طوال النهار، دور الزوج المخلص باتقان. فقابلا أولاً الدكتور ماريس، ثم توجها إلى المرفأ الذي كان يعج بالفنانين الجوالين، والمتاجر الساحرة. وفي متحف العهد الجيولوجي القديم، كان خير دليل لها، فأحبت كل لحظة أمضياها معاً. ولكن خلف تلك الواجهة البراقة، اختبأ رجل مكلف بمهمة خاصة، رجل يعد الثواني التي تفصله عن لقاء أفراد عائلته.

اختار غاب للمناسبة بذلة رمادية، أبرزت لون عينيه الرماديتين، في حين فضل جاك ارتداء بذلة زرقاء داكنة. وبعد أن استحمت أندريا وأزالت عنها غبار النهار، ارتدت فستاناً حريرياً أسود، بلا كمين، ياقته برتقالية، أصر غاب عليها لترتديه لحضور الحفلة. وكان غاب قد اشترى لها هذا الفستان، كهدية زفافهما، وعلى الرغم من أن طرازه لا يعجبها، أكد لها زوجها بأنه سيبدو أخاذاً عليها، فأدركت للحال أنه يريدها أن تسلب الأنظار بجمالها، حين تقابل عائلته المرة الأولى.

عند الساعة السابعة تماماً، ركن غاب سيارته خلف صف السيارات

المتوقفة قرب منزل عمته، في الجانب الآخر من الجزيرة. طراز المنزل كان شبيهاً بطراز المزارع الكبيرة، وقد طلي باللون الأصفر من الخارج.

نزل غاب من السيارة، وتوجه إلى الجهة اليمنى منها ليساعدها على النزول. ولكن قبل أن يصل إلى الباب، ارتمى عليه شابان، شعرهما بني، يشبهان بعضهما البعض كثيراً، وملامحهما تؤكد أنهما من آل كوربن. أخذ قلب أندريا يتخبط بعشوائية وهي تتأمل لقاء الأخوة، يوم غادر غاب كان أخواه التوأمان في السادسة عشرة من عمرهما، وها هما اليوم رجلان راشدان.

في خضم الهتاف والضحك، شعرت بالسعادة تغمر الوجوه، قبل أن تبدأ المعانقات والقبل. ورأت خلف الشبان الثلاثة رجلاً ينزل سلم الشرفة الأمامية، وقد بدا أكبر سناً من الآخرين، ولكنه يتميز بملامح آل كوربن عينها، وقامته تضاهي قامة غاب طولاً. وعلى الرغم من المسافة التي تفصل بينهما لمحت في عينيه تلك النظرة الغامضة، التي غالباً ما كانت تلمحها في عيني غاب، خلال عملهما معاً. تردد الرجل قليلاً، ثم عاد وانضم إلى شقيقيه مرحباً بابن كوربن الثاني العائد بعد طوال غياب.

ساعد جد غاب أندريا في النزول من السيارة قائلاً: «دعي الأخوة يجددون معرفتهم ببعضهم البعض، واسمحي لي أن أرافقك إلى الداخل لأعرفك على الجميع».

ـ شكراً لك يا جاك!

تأبط جاك ذراعها وسار معها نحو المنزل، وإذ رفعت أندريا عينيها نحو الشرفة، لمحت امرأة سمراء ذات حاجبين داكنين، وشفتين ملتويتين استياءً، تقف هناك. كانت المرأة ترمي غاب بنظرات ملؤها الشوق، وقد خلا وجهها من أي لون أو تعبير.

لا بد أنها جان ماري، تلك الفتاة التي استحوذت على اهتمام غاب في

يوم من الأيام، ثم تزوجت شقيقه الأكبر سناً، ليذكرها دوماً بالرجل الذي لم تتمكن من أسر قلبه.

لم تخل أندريا أنها قد تنزعج من مقابلة المرأة التي عرفها زوجها في الماضي، ولكنها كانت مخطئة، مخطئة حقاً!

شعرت بالدماء تسري حارة في عروقها، ألم ينذرها حدسها بالعذاب الذي ينتظرها في المستقبل؟

٧ ـ وانجلت الحقائق...

أحس جاك بارتعاش أندريا، فأسرع يشدها إليه وكأنه يريد أن يقيها من الأذى، وصعدا معاً الدرج المؤدي إلى الشرفة، حيث كانت المرأة تقف مسمرة في مكانها.

ـ جان ماري، أقدم لك أندريا زوجة غاب.

تفرست المرأة فيها بعينين ثاقبتين خلتا من الود.

ـ مساء الخير.

قطبت جان ماري جبينها، ورحبت بها بعبارة فرنسية مقتضبة، متعمدة أن تظهر لها نفورها، غير أن أندريا كانت مهيأة لكل ذلك، بعد أن حذرها غاب من احتمال أن تتحالف العائلة كلها ضدها، فاستجمعت شجاعتها وأجابتها قائلة: «مساء الخير يا جان ماري، سررت بالتعرف إليك».

ومدت يدها لتصافحها.

أمضت أندريا النهار بكامله تتمرن على هذه الجملة، إلى أن أقر غاب، في نهاية المطاف، بأن لفظها بات مقنعاً.

وجدت المرأة نفسها مرغمة على مصافحتها، مصافحة سريعة وغاية في البرودة، إن صح التعبير. لمحت أندريا، بطرف عينها شرارة الرضى تومض في عيني جاك. وفي تلك اللحظة، ظهر جيل أمامها، مرتدياً بذلة زرقاء داكنة وربطة عنق مثل أبيه.

لا شك أنه كان يقف عند مدخل البيت، منذ بعض الوقت، إذ كانت

www.elromancia.com

الابتسامة العريضة على وجهه، دليلاً قاطعاً على مشاهدته التمثيلية الجانبية، واستحسانه لردة فعل أندريا، وما لبث أن فتح لها ذراعيه مرحباً، ليفاجأ بها ترتمي بين أحضانه من دون تردد.

رافقها الرجلان إلى الداخل كأنهما حارسا شرف، وتوليا مهمة تقديمها إلى أفراد عائلة غاب جميعاً. وجود جيل و جاك إلى جانبها خفف كثيراً من وطأة تلك التجربة المزعجة. إذ خيم السكون فجأة على الصغار، في حين لم يحاول الكبار تخطي حدود الأدب معها، حتى إنهم لم يرحبوا بها بحرارة. وازاء هذه المعاملة الباردة، بدأت أندريا تكوّن فكرة واضحة عن الصعوبات التي واجهتها والدة غاب في بداية زواجها.

بعد الانتهاء من التعارف، قادتها هيلين إلى المائدة في غرفة الطعام، وألحت عليها أن تفتح «البوفيه» لأنها ضيفة الشرف، فسُلطت العيون كلها عليها، وهي تصب القليل من كل شيء في طبقها.

أحست بالارتياح حين لحق بها عدد من المراهقين إلى غرفة الجلوس، وجلسوا إلى جانبها على الكنبة. رأت أندريا أمارات الفضول على وجهي توأمي ايف وجان ماري، الصبي والفتاة، فلم تجد مانعاً من اشباعه، شرط أن يساهم ذلك في اذابة الجليد.

ـ لم أتناول سمك الهلبوث منذ سنوات طويلة، إنه لذيذ الطعم!

قالت لهما ذلك بعد أن تذوقت القليل من السمك من طبقها، فأجابها روجر بلكنة فرنسية شديدة الوضوح: «لا بأس به!».

ـ أظن أن الأشخاص الذي يقيمون في مناطق محاذية للبحر، لا يقدرون أهمية السمك الطازج بالنسبة إلى شخص مثلي.

التفتت فيفيان نحوها وسألتها: «ما الذي تأكلونه في بلادك؟».

بدت لكنتها بارزة مثل أخيها، إلا أن أندريا تأثرت كثيراً لدى سماعهما يتكلمان بالإنكليزية.

ـ وجبات سريعة!

ابتسم المراهقان ابتسامة عريضة عند سماعهما ملاحظتها وبدآ يتصرفان على طبيعتهما.

ـ حين كنت تعملين لحساب غابريال، هل سافرت يوماً على متن طائرته الخاصة؟

أرادت فيفيان أن تسمع ردها، شأنها شأن بقية أفراد العائلة الذين تجمعوا على الكراسي والمقاعد، في أنحاء الغرفة.

ـ أجل، سافرت على متنها ثلاث مرات.

ـ لمَ لم يحضرها معه إلى الجزيرة؟

لاحظت أندريا بأن الجميع يصغي إليها باهتمام بالغ.

ـ لأنه باعها.

ـ لماذا؟

ـ لأنه باع شركته وعاد إلى بلاده، ولم يعد بحاجة للسفر بعد اليوم.

ـ أما زال يملك ذلك المبنى في نيويورك؟

ـ لم يكن ملكاً له يا روجر، غاب استأجر طابقين منه، وخصصهما لمكاتب الشركة.

ـ هل يملك منازل في أرجاء العالم كله؟

ـ لا أظن ذلك يا فيفيان.

ـ كم حارس شخصي لديه؟

ـ ليس لديه حراس شخصيون.

قطب روجر جبينه قائلاً: «ولكن الأثرياء يستخدمون حراساً شخصيين».

وضعت أندريا شوكتها جانباً وقالت: «أظن أن فكرتكما عن غاب

خاطئة، فهو يفضل استثمار أمواله في الأعمال وليس في شراء الممتلكات، ولكن شركة كارش للتكنولوجيا اشترت حصته كلها، فلم يعد ثرياً، وأصبح مثل أي واحد فيكم».

ـ ولكن ثمنها...

ـ وهب الأموال كلها للجمعيات الخيرية.

شهق جميع الحاضرين في الغرفة، فيما هزت فيفيان رأسها ببطء: «أتقصدين القول إنه تخلى عنها؟».

ـ أجل.

حدقت الفتاة في أندريا غير مصدقة، ثم أخفضت بصرها لتنظر إلى يدها اليسرى قائلة: «ألهذا السبب لا تضعين خاتماً ماسياً كبيراً؟».

ـ أظن ذلك. فاجأني غاب بهذا الخاتم الذهبي.

ـ هل أنت مستاءة لأنه أصبح فقيراً؟

ـ كلا يا فيفيان، إنني سعيدة.

سألها روجر: «كيف يعقل أن تكوني سعيدة بفقره؟».

ـ ثمة أمور أكثر أهمية في الحياة من تكديس أموال تفوق حاجتنا. كان غاب دوماً يحن إلى أرضه، فهو يعشق البحر.

ـ منذ متى؟

علا صوت ذكوري ساخر من الخلف، وتبين لها أنه ميشال، ابن العمة هيلين وزوجها أوغست.

ـ منذ زمن بعيد.

أكدت له ذلك، وقد اشتعلت الحماسة في داخلها، للدفاع عن زوجها ضد العدائية المنبعثة من الكبار. وتابعت تقول: «لعلك لا تعلم أن غاب عضو في المجلس الفرنسي لشؤون صيد الأسماك، وعلى علم ما أصاب

سان بيار أكثر من أي فرد من أفراد هذا المجتمع».

ـ المجلس الفرنسي لشؤون صيد الأسماك!

أثار كلامها انتباه عميّ غاب، اللذين أخذا يحدقان فيها وكأنها كائن من كوكب آخر.

ـ أجل، ومساهمته في حل النزاعات على الحدود، أدت إلى إقرار حقوق صيادي الأسماك ضمن مسافة قدرها اثني عشر ميلاً، بعد أن حاول الكنديون سلبكم إياها.

توقف ميشال عن الأكل، وحذا الآخرون حذوه. فأطلقت أندريا العنان للسانها وتابعت تقول بشغف وقد توهج خداها: «حتى الوظائف التي يشغلها برتراند وفيليب والمئات من المواطنين سواهما في مصنع معالجة الأسماك، هي ثمرة الجهود التي بذلها غاب».

أسرعت العمة سيسيل تطرح السؤال الذي يدور في ذهن الجميع: «إنها شركة فرنسية من بريست».

ـ هذا صحيح، لكنها تأسست بفضل أموال غاب وعبقريته.

خلال الجولة التي قاما بها نهاراً في الجزيرة، فضح غاب نفسه أمامها. من دون أن يقصد ذلك، كان يعرف الكثير عن اقتصاد الجزيرة، مما أكد لها تورطه في المشاريع التي تدر أرباحاً طائلة، علاوة على ذلك، تبين لها أنه ساهم أيضاً في مشاريع التنقيب عن النفط، التي ستؤمن وظائف جديدة، وتساعد على رفع مستوى المعيشة في الجزيرة. غير أنها احتفظت بهذا السر لنفسها. وقد أحست بأنها أفضت إلى العائلة بأسرار من الصعب عليهم استيعابها كلها دفعة واحدة.

وفي الواقع، خشيت أندريا أن تكون قد تفوهت بأشياء لا يجدر بها التفوه بها، فيستاء غاب منها. وعندما سمعت أصواتاً في غرفة الطعام، أخذت ترتجف وقد أدركت أنه دخل إلى المنزل برفقة اخوته. لحسن

الحظ، أن زوجها لم يصل بينما كانت تتحدث باندفاع عن فضائله وانجازاته.

مدت يدها لتأخذ الخبز، متظاهرة برغبتها في تناول قضمة منه، وإذا بعينيها تقابلان عينيه المشعتين. حمل غاب كرسياً من غرفة الطعام ووضعها خلفها، وقبل أن يجلس عليها، طبع قبلة على قمة رأسها، ثم قال لها هامساً: «آسف إن تركتك فريسة للذئاب لتنهش لحمك، لن أدعك وحدك ثانية».

حمل أخواته كراسيهم معهم أيضاً، وكان ايف آخر من دخل غرفة الجلوس و جان ماري إلى جانبه. خيم الصمت على الغرفة، بعد أن انهمك غاب في تناول الطعام، فيما استغرق الباقون في التفكير في كلام أندريا، وتمنت في سرها أن يكون صمتهم نابعاً من الإحساس بالذنب حيال ما راودهم من أفكار قاسية تجاه غاب.

لم يتوقف بول، ابن فيليب البالغ من العمر إحدى عشرة سنة عن التفرس في وجه أندريا.

- لمَ تزوج العم غابريال بك؟

ضبطت أندريا أعصابها، حتى لا يظهر على قسمات وجهها الأسى الذي سببه لها هذا السؤال، وقالت بهدوء: «كنا نعمل في الشركة عينها، وتبين لنا أن الاعجاب متبادل بيننا».

- ولكنك أميركية.

- هذا صحيح، فقد ولدت في نيويورك، هل زرتها من قبل؟

- كلا، ولكن والديّ اصطحباني إلى مونتريال.

- لم أزر هذه المدينة من قبل، هل أعجبتك؟

- أجل إنها كبيرة.

- ونيويورك كبيرة أيضاً، ولكنني أفضل هذه الجزيرة لأنها هادئة، والمحيط يمتد على مرمى النظر.

وإذا بوالدته سيليست تتحدث للمرة الأولى بلهجة إنكليزية صحيحة لا تشوبها إلا لكنة فرنسية خفيفة: «انتظري لتري الضباب».

أحست أندريا بأن المرأة تحاول أن تبادلها أطراف الأحداث، مخففة من حدة التوتر، بدلاً من أن تزيد الطين بلة.

- قال لي غاب إنه سيء.

حدقت سيسيل فيها قائلة: «فصل الشتاء مريع هنا».

إن ظنت عمة غاب أنها تستطيع أن تحبط عزيمتها بكلماتها تلك، فهي مخطئة حتماً.

- وفصل الشتاء مريع أيضاً في نيويورك، إذ تتوقف حركة السير بسبب تراكم الثلوج، وتقطع الرياح القوية الأسلاك الكهربائية، ولا نجد أمامنا خياراً إلا البقاء في المنازل قرب المدافىء.

وضع غاب يديه على كتفيها من الخلف، وقال: «لِمَ تخالونني أحضرت زوجة معي؟ قيل لي إنهنَّ مميزات في أوقات مماثلة».

تورّد خداها وشعرت بقشعريرة تسري من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، من تأثير لمساته. وضحك الرجال ضحكة خافتة، فيما اكتفت النساء بالابتسام. باستثناء سيسيل التي جلست في المدخل، بين غرفة الطعام وغرفة الجلوس، تحدق في أندريا بوقاحة. غير أن نظراتها السلبية تلك لم تخفَ على جيل، فوقف في تلك اللحظة حاملاً كوب العصير في يده وقال: «أشكر الله لأنه أطال في عمري لأرى ابني الثاني يعود من جديد إلى أرضه. والحق يقال إن زوجته أندريا هبة من الله، أهلاً بكما في دياركما يا ولديّ!».

- إنني مسرور جداً بالعودة إلى الجزيرة يا أبي، وأنتظر بلهفة لحظة نذهب معاً لصيد الأسماك.

وغدا صوته أجش وهو يضيف قائلاً: «سنقيم أنا وزوجتي في منزل جدي إلى أن ترحل كارميل، فننتقل بعدها إلى منزلنا الجديد. وإن أراد أحدكم مساعدتنا على طلي الجدران وإصلاح السقف، فلن نرفض مساعدته».

هتف برتراند وفيليب في آن معاً: «سنأتي لمساعدتكما!».

فأحست أندريا بالعطف نحوهما، لما أظهراه لـ غاب من محبة صادقة.

- أشكرك على العشاء يا عمتي هيلين، فأطباق الجزيرة المعدة في المنزل هي الأطيب على الإطلاق. بعد أن نستقر في منزلنا سندعو الجميع ليتذوق وصفات زوجتي الإلمانية.

نظر بول إلى أندريا مقطب الوجه وقال: «حسبتك أميركية».

- هذا صحيح، ولكن والدي من هايدلبرغ.

تدخل غاب قائلاً: «إنهما يملكان متجراً لكسارات البندق في سكارسدال».

لاحظت أندريا التغيير في نبرة صوت غاب، وأدارت رأسها لترى ما الذي يحصل، فوجدت زوجها يبحث في جيوب بذلته عن مفاتيح سيارته. ثم أعطاها لروبرت قائلاً: «تجد في صندوق سيارتي علباً شحنها والدا أندريا إلى هنا، وهي عبارة عن هدية لكل واحد منكم».

لم تكن أندريا على علم بالأمر. وبعد أن خلت الغرفة من الأولاد الذين لحقوا جميعاً بروبرت، حدّقت أندريا بزوجها مذهولة، فطبع قبلة على رأسها قائلاً: «هل من سوء إن لعبت دور «بابا نويل» في منتصف شهر

حزيران؟».

- إطلاقاً!

عاد التوأمان حاملين علبتين كبيرتين، فملأت البهجة قلبها وقد أدركت أن زوجها تآمر سراً مع والديها، واشترى الهدايا من متجرهما للاحتفال بعودته إلى ربوع وطنه. قضى غاب الدقائق العشر التالية راكعاً على ركبتيه، والحماسة تغمره، كأنه طفل صغير يبحث عن العلب، ويقرأ الأسماك المدونة عليها، ليتمكن الأولاد من توزيع الهدايا على أصحابها. وما هي إلا ثوانٍ قليلة، حتى علا الضجيج في الغرفة، حين راح الأولاد يفتحون هداياهم ليخرج كل منهم كسارة الجوز الخاصة به، أما الرجال فتلقوا غلايين جميلة، في حين لم تخفِ النسوة إعجابهنّ باللوحات الخشبية، المرسومة باليد، والتي تمثل المغارة التي ولد فيها الطفل يسوع.

- هذه لك.

التقت عيناه المشعتان بعينيها: وقال لها: «يمكنك استعمالها كزينة لعيد الميلاد، لتذكرك بوالديك».

عيد الميلاد؟ لم تكن تتخيل أن اقامتها ستطول إلى هذا الحد، وعلى الرغم من ذلك أخذ نبضها يتسارع أكثر فأكثر وهي تفتح العلبة لتجد كسارتي الجوز المفضلتين لديها واللتين تمثلان ملكاً وملكة. إنهما زوج نادر من الكسارات، قام والداها بعرضهما على الرف العلوي من الخزانة، ولكنهما أبيا بيعهما.

أغشت الدموع بصرها وهي تقول: «لا أصدق أن والديّ تنازلا عنهما».

- وعدتهما بحفيد في المقابل.

كلا، لم يكن ذلك هو السبب، فوالداها يعلمان أن فرص حملها ليست كبيرة. لكنهما أحبا غاب من صميم قلبيهما، ولم يشاءا أن يرفضا له طلباً.

مسحت أندريا عينيها قائلة: «شكراً لك، إنهما تعنيان لي الكثير».

تقدم الأولاد، الواحد تلو الآخر، من غاب، ليشكروه ويقبلوا خديه. نظرت أندريا حولها مسرورة وقد تبين لها أن الهدايا لاقت استحساناً باهراً، وتأثر الجميع، بمن فيهم سيسيل وزوجها، بهذه اللفتة الكريمة منه.

وقبل أن تعي ما يحصل، أحاط أخوة غاب بها، بمن فيهم ايف، وراحوا يشكرونها ويعانقونها بحرارة، وما لبثت أن لحقت زوجاتهم بهم.. وأدت جان ماري دورها وكأن شيئاً لم يكن، إلا أن الغموض بقي يغلف عينيها. وقد أدركت أندريا أن تقبيل زوجة غاب أمام عينيه، ليس بالأمر السهل بالنسبة إليها.

- اعتذر يا عمتي هيلين عن هذه الفوضى في غرفة الجلوس.

- لا عليك يا غابريال، لقد أسعدت الجميع.

ونهضت من مكانها لتعانقه قائلة: «أهلاً بعودتك إلينا».

وانهمك الجميع في ترتيب المكان، بينما تسللت أندريا إلى غرفة الطعام، لترفع ما تبقى من أطباق وتحملها إلى المطبخ. هناك وجدت سيسيل تضع الأطباق المتسخة في غسالة الصحون الآلية، فنظرت إلى أندريا بطرف عينها قائلة: «لا تشبهين والدة غاب أبداً».

طرفت أندريا بعينها وقالت: «آسفة، لم أفهم».

- إنك تعبرين عن رأيك بلا خوف.

- بعبارة أخرى، كانت والدة غاب خجولة.

- ربما، هل أخبرك غابريال عن علاقته السابقة بـ جان ماري؟

أخذت أندريا نفساً عميقاً: «هل تشعرين دوماً بالبهجة حين تثيرين المتاعب؟».

أغلقت سيسيل باب غسالة الصحون وأدارتها، ثم قالت: «أرى أنه لم

يخفِ عنك شيئاً، ألا تشعرين بالانزعاج؟».

- من أي ناحية؟

- لأن علاقته بها كانت حميمة، ما أدى إلى حملها بطفله.

لم تشأ أندريا أن تناقش معها أموراً تتعلق بـ غاب أو بأخيه.

- علمت أن أبوة الجنين مشكوك في أمرها، لعلها عرفت رجلاً آخر.

شهقت سيسيل ووضعت يدها المرتجفة على فمها قائلة: «ما الذي قاله لك جاك؟».

ما سبب توتر عمة غاب إلى هذا الحد؟

- لم يخفِ عني شيئاً، إن كان هذا ما تقصدينه.

هزت العجوز برأسها، ثم قالت متلعثمة: «كيف علم بأمر كلود؟».

كلود! رباه! هل خانتها أذناها أم أن سيسيل قالت...

- أندريا!

اضطربت العمة لدى سماعها صوت غاب، وأكدت نظرات الخوف في عينيها شكوك أندريا. التفت نحو الباب، فوجدت زوجها القوي البنية الطويل القامة يقف عند المدخل، وتساءلت لما يرتعش جسمها كلما وجدت نفسها أمامه!

- كنت أبحث عنك يا حبي، فجدي مرهق وعلينا أن نعيده إلى المنزل.

- إنني آتية!

وحولت عينيها إلى العجوز التي شحب وجهها شحوب الموتى، فإذا بنظراتها تتوسل إليها ألا تتفوه بكلمة.

- عمت مساء. سيسيل، سررت بالتحدث معك.

تمنى غاب لعمته ليلة سعيدة، ثم وضع ذراعه حول كتفي زوجته، وسألها وهو يهمس في أذنها برفق: «هل أنت بخير؟».

- أجل.

- لا تكذبي علي، لا بد أن سيسيل قالت شيئاً أزعجك، فلسعتها سامة، على حد قول أمي.

- في هذه الحالة، أخشى أنها لسعت نفسها هذه المرة، من دون أن تدري ذلك.

- ما الذي حصل؟

- أريد التحدث معك ومع جاك في أمر بالغ الأهمية، ولكن بعد خروجنا من هنا.

مرّت الدقائق الخمس التالية مفعمة بالشكر والتمنيات بإمضاء ليلة سعيدة، حمل بعدها غاب كسارتي الجوز والغليون الذي قدمه لجده، وأسرع يقودهما إلى السيارة. ولم يكد يدير المحرك وينطلق في طريق العودة إلى المنزل، حتى استدارت أندريا في مقعدها لتقابل عيناها عينيه، ثم سألت جاك: «قل لي يا جاك، من هو كلود؟».

بدت أمارات الذهول على وجهه العجوز لدى سماعه هذا السؤال غير المتوقع:

- إنه ابن خال جان ماري، لمَ تسألين عنه؟

- هل يقيم في الجزيرة؟

- كلا. كان ابن أخ ايفانجلين الوحيد يكره البحر، ولا يساعد أبداً والده، وقد رحل إلى فرنسا منذ سنوات طويلة، ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

- ألم يتزوج؟

- لا أظن ذلك!

- متى رحل بالضبط؟ هل تذكر يوم رحيله؟ إن الأمر مهم جداً.

رماها غاب بنظرات ثاقبة قبل أن يمسك بيدها، أما جاك فأجابها: «أذكر يوم رحيله جيداً، لأنه كان أتعس يوم في حياتي».

وشعرت أندريا بغصة ألم في صوت العجوز، فيما شد غاب قبضته على يدها، وسأله: «ما الذي تقصده يا جدي؟».

- إنه يوم رحيلك عن الجزيرة يا بني... يومها، قصدت برفقة جدتك، منزل والدك، بغية التخفيف عنه، وخلال وجودنا هناك، وصلت هيلين و سيسيل حاملتين خبر رحيل كلود أيضاً، ويبدو أن ايفانجلين أصيبت يومها بانهيار عصبي لأن ابن شقيقها الوحيد رحل عن دياره.

تزامن أنين أندريا مع وصولهم إلى المنزل. أطفأ غاب المحرك، من دون أن يحرك ساكناً للنزول من السيارة.

- ما الأمر يا أندريا؟

حدقت أندريا بالرجلين لبضع ثوانٍ، ثم أجابت قائلة: «إنني واثقة من أن ايفانجلين أصيبت يومها بانهيار عصبي، ولكن السبب هو أن كلود كان والد طفل جان ماري وليس غاب».

خلال الصمت المطبق الذي خيم عليهم، لم يعد يسمع إلا أصوات تنفسهم. وعلى الرغم من الظلمة الحالكة، بدت قسمات وجه غاب وكأنها محفورة في الصخر.

- هل قالت لك سيسيل إنه تحرش بابنة عمته؟

كانت أصابعه تمسكان بأصابعها بشدة بالغة، فأدركت أنه لا يعي مدى قوة قبضته. ودمدم بنبرة لم تسمعها من قبل: «أخبرينا ما قالته لك حرفياً».

فأذعنت لطلبه من دون تمهيد: «عندما دخلت أنت إلى المطبخ، أدركت سيسيل الخطأ الذي ارتكبته حين أخبرتني بالأمر. غير أن الأوان كان قد فات لإخفاء سر ايفانجلين، لن أنسى أبداً نظرات الذعر في عينيها».

- السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كان أبي على علم بالأمر؟ ومتى علم به؟

بدا صوت غاب أشبه بالجليد، فاستولى الرعب على أندريا وقد أدركت أن إحساسها المسبق بأن العذاب لم ينتهِ بعد، بدأ يصبح حقيقة. مال جاك إلى الأمام ووضع يده على كتف غاب قائلاً: «اذهب إليه هذا المساء واعرف منه الحقيقة كاملة».

أجابه غاب بحدة: «هذا ما أنوي أن أفعله».

- لا داعي لمرافقتنا إلى الداخل يا غاب.

وأكدت له أندريا بصوت مرتجف: «لا تقلق بشأننا، سنكون بخير».

- طبعاً!

جمع جاك علب الهدايا ونزل من السيارة، ثم نزل غاب أيضاً ورافقهما إلى الشرفة الأمامية، وفتح باب المنزل أمامهما. وإذ همت أندريا باللحاق بالعجوز إلى الداخل، قطع زوجها عليها الطريق قائلاً: «بفضلك يا أندريا، سأضع حداً لهذا الكابوس المزعج. أشكر الله لأنه وضعك في طريقي».

وأخفض رأسه وطبع قبلة على جبينها ثم تركها فريسة لنيران الشوق تلتهمها. بقيت أندريا مسمرة في مكانها، عاجزة عن الحراك، حتى بعد أن صعد إلى السيارة، وانطلق ينهب الأرض نهباً.

ترقرقت الدموع من عينيها وقد أحست بمرارة سخرية القدر. فبعد أن علم غاب أن طفل جان ماري لم يكن منه، سيتغير الوضع حتماً. لأن ذلك يعني أنه لم يفقد طفلاً، ولم يعد لديه مبرر لمحاولاته الحثيثة لاستبداله بآخر، فالحقيقة ستقلب حياته رأساً على عقب!

لأول مرة منذ زواجها تمنت أندريا ألا تكون حاملاً لا سيما وأن فرصها ضئيلة. من جهته، لن يحتاج غاب إليها لتساعده على مواجهة

عائلته، فأبوة جنين جان ماري بدلت المقاييس كلها. يمكنها أن تحرره من قيود الزواج ليغرم بفتاة من الجزيرة، فتاة من بني قومه تتقبلها عائلته بكل سرور، فتاة لا تعاني من مشاكل صحية، فتنجب قدر ما يشاء من الأولاد.

- أندريا!

ناداها صوت رقيق: «هل ستدخلين؟».

- أجل، كنت أتأمل انعكاس ضوء القمر على المحيط، إنه ساحر!

وأكملت في سرها: وكنت أشكر الله لأن كارميل لم تخلِ منزلها بعد.

وإذ أدركت قلق جاك على ابنه وحفيده، دخلت إلى المنزل وأقفلت الباب خلفها.

٨ ـ حلم لن يتحقق

لم يرَ غاب السيارة أمام المنزل الذي ترعرع فيه، فانعطف حول الزاوية مروراً قرب سيارتي فيليب وايف، ولكن من دون جدوى. لعل والده بقي عند عمته هيلين بعد انصراف الجميع، ولكنه لم يجد أثراً لسيارته أمام منزل عمتيه أيضاً، وعلى الرغم من الرغبة الجامحة التي استولت عليه في استجواب العمة سيسيل حول ما قالته لأندريا، وحده والده كان قادراً على إشباع فضوله، وتزويده بالحقيقة التي نغصت عليه حياته طويلاً.

لم يبقَ أمامه إلا خيارين، فقرر أن يقوم بجولة حول حانات المرفأ، بما فيها حانة «البحار الصغير»، وكم كان ارتياحه عظيماً حين لم يعثر على سيارة والده في أي مكان، مع أنه كان مصمماً على العثور عليه بأي ثمن، وبغض النظر عن المكان أو الزمان أخيراً، توجه إلى المرسى، ولكن نتيجة بحثه جاءت سلبية أيضاً.

وقف غاب يتأمل المياه المتلألئة في ضوء القمر وقد تملكه الاحباط، إنها ليلة من تلك الليالي الساحرة التي لا تشهدها سان بيار إلا لماماً. أترى والده وقع فريسة للكآبة، فقصد مكاناً نائياً ليشرب حتى الثمالة؟

دفعه حدسه للتوجه بالسيارة إلى بقعة نائية من الجزيرة، في محاولة أخيرة للعثور عليه، وفيما كان يجتاز المنعطف لمح سيارة والده متوقفة هناك، ورأى عند أعلى منحدر التل، محطة إذاعية تطل على المحيط، إنه موقع ممتاز يشرف على المدينة كلها. بعد أن ركن سيارته خلف سيارة والده

البيجو، نزل منها وتوجه سيراً على الأقدام نحو المبنى الصغير، وما إن بلغ القمة حتى شاهد ظل والده في ضوء القمر.

بدا جيل وحيداً، وقد وقف هناك مطأطىء الرأس، ويديه في جيبي بنطلونه. فاعتصر الألم فؤاد غاب.

ـ أبي!

التفت والده نحوه مذهولاً: «غابريال، لِمَ لست في المنزل مع زوجتك؟».

راح نسيم البحر العليل يشعث شعرهما، يتلاعب بربطتي عنقهما. فحل غاب ربطة عنقه ودسها في جيبه، ثم اقترب من والده ليرى ملامح وجهه وما تخفيه بين ثناياها.

ـ أخبرت سيسيل أندريا أمراً زعزع عالمي.

لوى جيل فمه ازدراءً: «لطالما كانت أختي صعبة المراس، حتى وهي طفلة، كأن مهمتها الأساسية في هذه الحياة هي الإساءة إلى كل شخص عزيز على قلبي، ما الذي تريدني أن أفعله لإصلاح الأمور مع أندريا؟».

لم يكن جواب والده على قدر توقعاته، وإن كان لديه ما يخفيه عنه، فالحق يقال إنه يؤدي دوره ببراعة.

ـ لم أطرح عليك هذا السؤال من قبل ولكنني سأفعل الآن. متى أخبرتك جان ماري بأنها تحمل طفلاً مني؟

حدق جيل به بهدوء: «في أحد الأيام، جاء ايف يخبرني بأنهما متحابان ويريدان الزواج».

إنها صدمة أخرى، أغمض غاب عينيه لبرهة من الزمن.

ـ إثر المشاكل التي نشبت بين عائلتي وعائلة ايفانجلين، بسبب رفضي الزواج بها، لم أتحمل فكرة أن تصبح ابنتها زوجة لأيف.

كان غاب يتفهم موقف والده جيداً.

- خطر لي أن أحاول ثني أخيك عن الزواج، فاقترحت عليه أن يتريث قليلاً. لا سيّما وأنه لم يمضِ وقت طويل على فسخ خطوبته مع سوزيت وتوددِه إلى جان ماري. خشيت أن يرتبط بها قبل أن يشفى تماماً من خيبة أمله العاطفية الأولى.

- وهل اعترف لك عندها بأنها تنتظر طفلاً؟

هز والده برأسه: «وجدت صعوبة في تصديق كلامه، وطلبت منه مقابلة جان ماري، فذهب لإحضارها، وعادا إلى المنزل ترافقهما ايفانجلين. أخبرتني هذه الأخيرة أن الدكتور لوبران أكد لهما الحمل، وألحت علي لتحديد موعد الزفاف، فوجدت نفسي مرغماً على المضي قدماً في الإجراءات. ولكن القدر لعب لعبته وأجهضت جان ماري، فعدت وطلبت من ايف تأجيل العرس لبضعة أشهر، إلا أنه هاجمني واتهمني بأنني أكره جان ماري بسبب ايفانجلين. ولكن بعد فقداني لوالدتك، وحزني الشديد على رحيلك عن الجزيرة، لم أتحمل أن ينفر ايف مني، لذا قررت أن ألعب دور الوالد السعيد، وقبل أسبوع من الزفاف، وجدت ايفانجلين تنتظرني قرب سيارتي، عند عودتي من رحلة الصيد.

«ما إن وقع نظري عليها، حتى أدركت أنها تحمل أخباراً سيئة. قالت لي إن جان ماري وقعت في حبك، وحملت منك، إلا أنك أبيت الاعتراف بالطفل، وطلبت مني أن أبعدك عن حياتهما، حتى لا تتراجع ابنتها عن قرار الزواج، لا سيما بعد أن فقدت جنينها».

بدا وجه والده متشنجاً في ضوء القمر. ثم تابع يقول: «أكدت لي ايفانجلين أن لا مجال للشك في أبوة الجنين، لأنها رأتكما معاً، ليلة مهرجان الباسك، ثم هددتني بأن تخبر ايف الحقيقة كاملة إن لم أبعدك من هنا. كنت أعلم أنها تعني ما تقوله، لأنها لطالما سعت لإلحاق الأذى بي،

بعد أن فضلت والدتك عليها».

رباه! لم تكن شكوك جده بعيدة عن الواقع...

- يوم طلبت منك ألا تحضر الزفاف، كنت أختبرك فحسب، وتوقعت منك أن تنكر تورطك مع جان ماري، ولكنك لم تدافع عن نفسك.

جاءت كلماته الأخيرة أقرب إلى الهمهمة، فبذل غاب جهده ليسيطر على عواطفه.

- حصل ذلك ليلة المهرجان، ليلة قلت لي إن والدتي لن تعود أبداً.

اتسعت عينا والده وقد أثار كلام غاب ذكريات أليمة.

- خرجت تلك الليلة إلى مركب الشركة، أنا أشعر بالحزن والإرهاق، ويبدو أن جان ماري لحقت بي. صحيح أن صورة ما حصل تلك الليلة ضبابية بعض الشيء، ولكنني أذكر أنني وجدت جان ماري أمامي، ولم أفهم يوماً السبب.

- ماذا تقصد؟

أرجع رأسه إلى الخلف: «بدأت الصورة تتوضح أمامي. في وقت من الأوقات، غلبني النعاس، ولما استيقظت وجدتها قربي، فلم أصدق ما حصل، كان الفجر قد انبلج، فرافقتها إلى منزلها واعتذرت منها، ملحاً عليها أن تنسى الأمر، لأنه مجرد غلطة فادحة».

- ألهذا السبب سافرت بعد يومين إلى نيويورك؟ هل كنت تشعر بالذنب؟ هذا ما أكدته لي ايفانجلين.

- كلا يا أبي، فكلام ايفانجلين كله كذب، لم أتحمل طلاقك من أمي، وشعرت بأن عالمي ينهار، فلم أجد أمامي إلا الفرار من هنا.

- غابريال.

بدا والده طاعناً في السن، وأكبر من عمره بسنوات.

ـ ما الذي فعلته بك؟

ـ الذنب ليس ذنبك يا أبي، إنه ذنب ايفانجلين، فهي المتهمة الفعلية. وخططها الجهنمية لتفسد علينا حياتنا، طوال هذه السنوات، كانت بالتعاون مع شريكتها سيسيل.

تقدم جيل نحوه قليلاً:

ـ ما الذي قالته أختي سيسيل؟

ـ بذلت سيسيل جهدها لحث زوجتي على الفرار من الجزيرة، فأوقفتها أندريا عند حدها، وقالت لها إن أبوة طفل جان ماري مشكوك في أمرها، ملمحة بذلك إلى ايف. ولكن سيسيل لم تفهم قصدها وظنت أن أمرها قد افتضح، فزل لسانها قالت إن كلود هو والد طفل ابنة عمته.

ترنح جيل من تأثير الصدمة:

ـ كلود، أذكر أنه غادر الجزيرة يوم رحيلك.

ـ هذا صحيح، والله وحده يعلم متى بدأ يتحرش بابنة عمته، ومتى علمت ايفانجلين بالأمر، وتكتمت عنه. أرادت أن تحملني مسؤولية الحمل، فأرسلت ابنتها إلى نيويورك بحثاً عني، آملة أن تعود وفي إصبعها خاتم زفاف.

بدت أمارات الذعر على وجه جيل.

ـ زارتك جان ماري في نيويورك؟

ـ نعم يا أبي، ولكنها لم تقل لي إنها حامل، بل اكتفت بالافصاح عن مشاعر الحب التي تكنها لي، آملة أن أعود معها إلى الجزيرة، فقلت لها إن الأمر لا يهمني وطلبت منها العودة إلى ديارها ونسياني، ولكني أؤكد لك بأنني لوعلمت بأمر حملها لوقفت حتماً إلى جانبها حتى لو لم أكن أنا والد طفلها.

شحب وجه جيل: «بدأت الأمور تتبلور أمامي، فشلت جان ماري في إيقاعك في حبائلها، فرمت الطعم لأيف. فهمت الآن سبب خوف ايفانجلين من حضورك حفل الزفاف، فأي كلمة تبدر منك، قد تنسف خططها من أساسها».

أومأ غاب برأسه: «يا لها من امرأة سيئة. لعل جان ماري شعرت بالخجل من أمر لا ذنب لها فيه، ولكن والدتها كانت تتلاعب بها لتنفذ رغباتها كلها. أظن أن الفتاة بحاجة إلى علاج نفسي».

اشتعلت نيران الغضب في عيني والده: «وايفانجلين كذلك الأمر. فبعد أن تعذر عليها الاستحواذ علي، لم تشأ أن تقطع شعرة معاوية بيننا، فاستغلت ابنتها لتبقى على مقربة مني».

ـ أتظن أن ايف يعرف الحقيقة؟

حدّق الرجلان ببعضهما البعض.

ـ ليس لدي أدنى فكرة، لا سيما بعد ما سمعته منك هذا المساء، جلّ ما أعرفه هو أن زواجهما ناجح، وحياتهما مكرسة لولديهما.

ـ لن أتفوه بكلمة أمام ايف، فالقرار عائد لجان ماري وحدها.

وتوقف قليلاً عن الكلام، ثم عاد وسأله: «هل كان لايفانجلين يد في رحيل والدتي».

فكر جيل ملياً قبل أن يقرر في نهاية المطاف الكلام: «بصورة غير مباشرة، مر والدي بأوقات عصيبة جداً وأردت أن أساعده قدر المستطاع، فرحت أبحث عن عمل إضافي. أخبرتني ايفانجلين يومها بأن أخاها مستعد لإيجاد عمل لي، لأن كلود يكره صيد السمك، فوافقت على العمل معه من دون تردد.

«أظنك تعلم جيداً أنه كان رجلاً ميسوراً، فدفع لي راتب سنة مسبقاً.

أعطيت المبلغ كله لوالدي. كنت ساذجاً جداً وظننته يساعدني لأنه يشعر بالأسف نحو والدي، ويقدر نشاطي في العمل. ولكن شاء القدر أن ألتقي بوالدتك وأتزوجها، فطردني على الفور، وطلب مني أن أسدد له ماله، مع الفائدة، وإلا أقام دعوى ضدي».

«لم يكن بوسعي أن أسدد المبلغ، من دون اللجوء إلى مصدر خارجي. وإذ لم أشأ أن يعلم أبي أو والدتك بالأمر تقدمت من المصرف بطلب قرض مهني، بغية تربية حيوان المنك وتصديره. وفور استلامي المال من المصرف، ذهبت إلى أخي ايفانجلين ودفعت له ماله بالكامل. وعلى الرغم من أنني استمريت في صيد السمك، عانينا من الفقر على مدى سنوات طويلة، فتربية المنك لم تزدهر، وفوائد القرض أثقلت كاهلي».

«وخلال إحدى الحفلات التي أقامتها سيسيل في منزلها، استغلت ايفانجلين الفرصة لتكشف لوالدتك سري، فثارت ثائرة كارول حين عرفت السبب الحقيقي لكفاحنا الطويل والصعب. وأكدت لي أن والدها لم يكن ليضن علينا بالمال في بداية حياتنا. واتهمتني بأنني تركت كبريائي تدمر زواجنا، معللة رغبتها بالطلاق، الطلاق الذي هو غاية ايفانجلين المنشودة».

«لم تحاول والدتك أن تأخذكم معها، لأنها تعلم أن صيد السمك يجري في عروقكم، ولن تعرفوا طعم السعادة بعيداً عن هنا. وعوضاً عن ذلك، قررت أن تأتي إلى الجزيرة، مرة في الشهر، لزيارتكم والاطمئنان عليكم، فكانت زياراتها تلك بلسماً لروحي العليلة».

ـ هل طلبت منها يوماً العودة إليك؟

ـ كلا، كانت حياتها معي سلسلة من الشقاء، ولم أخل أنه يحق لي أن أطلب منها فرصة ثانية.

مرر غاب يده المرتجفة بين خصلات شعره، قائلاً: «أظن أن كلينا ترك

كبرياءه تدمر حياته يا أبي، ولكن علينا أن نضع حداً لذلك».

ـ أنت على حق، علينا أن نضع حداً لذلك.

وتعانق الرجلان لمدة طويلة، قال بعدها غاب: «أرجو أن تكون صادقاً في كلامك، لأنني أريد أن أعرض عليك مشروع عمل جديد، مشروعاً يشمل أفراد العائلة كلهم. أتعلم أن أندريا أوحت لي بهذه الفكرة من دون أن تعي ذلك؟».

ـ لِمَ لا نتحدث في الموضوع في طريق العودة إلى سيارتينا؟ لا شك أن أندريا قلقة عليك، إياك أن ترتكب الخطأ عينه الذي ارتكبته، وتعتبر أن زوجتك جزء من زينة المنزل.

ـ لا أنوي ذلك يا أبي.

أراد أن يخبرها أموراً كثيرة، ومع وصوله إلى منزل جده، كانت الرغبة الشديدة في التحدث إليها تتآكله، غير أن أندريا لم تستفق عند دخوله إلى الغرفة. ولأول مرة منذ زواجها، كانت تنام نوماً عميقاً، فقرر ألا يستحم حتى لا يزعجها. يمكنه الانتظار حتى الصباح ليفضي إليها بمكنونات قلبه. استلقى قربها على السرير يقلب في رأسه الأسرار المزلزلة، التي فُضحت هذا المساء، ولكنه كان واثقاً من أن الغلبة ستكون للمسامحة.

طلع الصباح وأشرقت شمسه الساطعة كالعادة، ارتدت أندريا بنطلون جينز، وقميصاً قطنية صفراء واستعدت للذهاب في نزهة إلى المرفأ. ومع أنها كانت تتوق لمعرفة ما حصل ليلة أمس، بين غاب ووالده، تعمدت ألا توقظ زوجها من نومه. فدور الزوجين العاشقين لم يعد يليق بهما بعد اليوم.

لقد قدم غاب أفضل ما عنده خلال الأسبوعين الماضيين، في تمثيل دور الزوج الولهان. ولكن الوقت حان لتتوقف هذه التمثيلية. وأندريا تفضل الموت على أن يظن غاب أنها تتمنى أن تدوم لحظات النشوة تلك... من المؤكد أنه سينفر منها إن علم أنها واقعة في هواه، فهي لم تنسَ

تجربته مع جان ماري لا سيما بعد أن تبين له أنه ليس والد طفلها.

الأسرار الدفينة التي خرجت اليوم إلى النور جعلت عقدها مع غاب باطلاً. وهذا سبب آخر من الأسباب التي حثتها صباح اليوم على الخروج من دون أن يراها. خشيت أن يستيقظ زوجها ويجد نفسه مرغماً على اصطحابها لمعاينة منزل كارميل بعد الفطور. فقلما يهمها أن ترى المنزل من الداخل، وتشتعل فيها الحماسة لتصليح أول منزل لهما، في حين أنها تعي تماماً أنها لن تعيش معه فيه، فقد باتت شبه متأكدة من أن دورتها الشهرية باتت وشيكة، ومن الغباء الاستمرار في هذه المهزلة طويلاً، وإلا وجدت نفسها فريسة أحلام من الصعب أن تتحقق، أحلام قد تزيد من عذاباتها بعد عودتها إلى منزل والديها في سكارسدال.

قررت أن تجول خلال الأسبوع في الجزر الأخرى، لأنها تدرك في قرارة نفسها، إنها لن ترجع أبداً إلى سان بيار إن رحلت عنها الآن.

حين رآها جاك تنزل الدرج، أخبرته عن رغبتها بالذهاب إلى البلدة بمفردها، فاقترح عليها أن تأخذ دراجته إن كانت مصممة على ترك السيارة لغاب. عانقته شاكرة، وأبلغته أنها قد لا تعود قبل موعد العشاء، فغاب يود قضاء النهار برفقة فابريس والفرصة سانحة أمامها للتعرف على أماكن لم يتسنَ لها زيارتها البارحة.

لفت انتباهها محل لبيع الفاكهة. فأسندت دراجتها إلى حائط المحل الخارجي وهرعت إلى الداخل. وما إن وقعت عيناها على تلك الفواكه الشهية حتى سال لعابها، فمدت يدها لتتناول إجاصة ذهبية اللون، وإذ بصوت يناديها من الخلف. التفتت إلى الوراء، فرأت المعلمة ذات الشعر الأحمر، التي قابلتها في مطار هاليفاكس، قبل صعودها إلى الطائرة.

- صباح الخير يا مارشا.

ابتسمت المرأة قبل أن ترد عليها التحية: «أرى أنك أصبحت طالبة لغة

فرنسية مجتهدة».

إنه حلم آخر من الأحلام التي ينبغي عليها أن تتخلى عنها، إلا أنها لن تعترف بذلك. لا بد أن مارشا تخالها عروساً جديدة مفعمة بالأمل، جاءت إلى هذه الجزيرة لتمضي حياتها إلى جانب زوجها الفرنسي الوسيم، كم هي بعيدة عن الحقيقة!

- تعلمت أن أقول «صباح الخير ومساء الخير» و«سررت بالتعرف عليك»، هذه ذخيرتي كلها.

لمعت عيناها البندقيتين فرحاً: «لقد أدهشتني!».

- لمَ لا أراك برفقة الأساتذة الآخرين؟

- إنه يوم إجازتنا، ويمكننا أن نفعل ما يحلو لنا، وكما ترين، لم أفكر إلا بالطعام.

- الطيور على أشكالها تقع!

وتوجهت أندريا مبتسمة إلى الصندوق لتدفع ثمن إجاصتها، فلحقت بها مارشا حاملة بيدها تفاحة. ثم غادرتا المحل وهما تلتهمان الفاكهة.

- هل أنت على عجلة من أمرك؟

- كلا. فزوجي على موعد مع صديق له، والفرصة متاحة أمامي لأفعل كل ما يحلو لي. استعرت دراجة جده لأقوم بجولة في الجزر الأخرى، هل زرت أياً منها؟

- ليس بعد، سنفعل ذلك خلال عطلة نهاية الأسبوع.

- هل ترغبين بمرافقتي؟

- بكل سرور، ثمة متجر لتأجير الدراجات الهوائية للسياح قرب الفندق الذي أنزل فيه، سأستأجر واحدة وأذهب معك. بصراحة أفضل أن أرافق صديقة لي، بدلاً من أن أساق كالماشية.

أبعدت أندريا دراجتها عن الحائط وجرتها لتسير قرب مارشا فيما هما تشقان طريقهما إلى قلب المدينة. ولدى وصولهما إلى متجر تأجير الدراجات، كانتا محملتين بفطائر منوعة، منها خبز بالشوكولاته، ففضلتا أن تتقاسماه.

استأجرتا الدراجة الهوائية لمارشا، ثم توجهتا مباشرة إلى المعبر. لم تستطع أندريا أن تخفي فرحتها الكبيرة لوجودها برفقة امرأة ودودة، منفتحة الذهن، من بلادها. فكم من مرة تساءلت في سرها، كيف استطاعت والدة غاب أن تتحمل عدائية عائلة زوجها، خلال الأشهر الأولى من زواجها! لا بد أن حملها بايف منحها هدفاً جديداً في الحياة وأنساها عذابها، ولكن...

سألتها مارشا عند وصولهما إلى الرصيف: «ما الذي سنفعله؟ هل نقصد جزيرة البحار أم مكيلون؟».

ـ قالي لي غاب إن مكيلون تبعد ساعة من هنا، في العبارة، وبما أن النهار لم ينتصف بعد، يمكننا أن نتوجه على الدراجة من مكيلون إلى لاغلاند، فنرى كلتي الجزيرتين.

ـ موافقة!

اشترتا بطاقتين، ونقلتا دراجتيهما إلى عبارة غالانت التي لم تنطلق إلا بعد مرور عشرين دقيقة، وعلى متنها عدد من السياح، معظمهم من الكنديين الذين يتكلمون الفرنسية، فتوددت مارشا وأندريا إلى بعض الأميركيين والأوروبيين الذين وقفوا، مثلهما، قرب الدرابزين.

وفيما كانت العبارة تقطع الأمواج، خالج أندريا إحساس غريب بالوحشة وهي ترى سان بيار، تصغر شيئاً فشيئاً، لتتحول إلى رابية في الأفق البعيد، قبل أن تختفي تماماً. أيعقل أن تحفر هذه البقعة النائية من العالم بصماتها في قلبها؟ ولكنها أرض غاب وليست أرضها!

ـ أندريا، هل تشعرين بالدوار؟

أدارت رأسها نحو مارشا: «كلا، وأنت؟».

ـ قليلاً، وقد رأيتك شاحبة الوجه قليلاً، فحسبتك تعانين من الدوار أيضاً.

ردت أندريا عليها بصراحة متناهية: «أنا أفكر في مشكلة شخصية. يؤسفني أن أراك متوعكة».

ـ إنني أشعر بالإحراج.

ـ لا تكوني سخيفة، فما بيدك حيلة، سنصل إلى اليابسة في غضون عشرين دقيقة تقريباً، ما عليك سوى أن تستمري في التحديق بالأفق.

لم تكد تمر دقائق، حتى لحقت أندريا بصديقتها إلى المرحاض، حيث تقيأت كل ما أكلته صباحاً، لم تكن مارشا الوحيدة المصابة بدوار البحر، إذ كان صف المنتظرين أمام باب المرحاض طويلاً، يا لهم من مساكين!

مع وصولهم إلى الشاطىء الواقع عند الطرف الشمالي لأكبر الجزر وأطولها على الاطلاق، كان التعب قد بلغ من مارشا مبلغاً، فجلست على حافة الحائط المحاذي للرصيف، عاجزة عن الحراك.

توجهت أندريا إلى أقرب متجر واشترت لها بضع زجاجات من العصير، وبعد مضي ساعة من الوقت، بدأت صديقتها تستعيد قواها، فتوجهتا على دراجتيهما، إلى المدينة.

خلال وجودهما قرب الشاطىء، حجبت بعض الغيوم الشمس، وبدأ الضباب الشهير الذي سمعت عنه الكثير يتسلل من المحيط إلى اليابسة. تابعت المرأتان تجوالهما على الدراجتين، في الأزقة المكتظة، إلا أن أندريا لاحظت أن صديقتها مرهقة جداً، ولم يعد بوسعها متابعة سيرها.

ـ ثمة فندق على مقربة من هنا، سنجد فيه غرفة لنا.

لم تعترض مارشا على كلام أندريا مؤكدة بذلك شكوكها.

أخذ البواب دراجتيهما منهما ووضعهما في مكان آمن، ثم قادهما عبر السلم اللولبي إلى غرفة في الطابق الثاني من الفندق.

بدا الفندق شبيهاً جداً بالفندق الذي نزلت فيه مع غاب في شامبيني. فأحست أندريا بغصة في حلقها، وقد مر شريط ذكرى تلك الليلة في ذهنها، وتأججت في أحشائها نيران الشوق إلى زوجها، تأججاً آلمها.

ارتمت مارشا على السرير فيما وقفت أندريا تنظر من النافذة، محاولة أن تلقي نظرة خاطفة على العبارة، إلا أن الضباب كان كثيفاً جداً.

انتظرت قليلاً لتتأكد من أن صديقتها استرسلت في النوم، ثم غادرت الغرفة خلسة. وبعد أن تحدثت مع البواب، الذي أكد لها أن الضباب ليس كثيفاً إلى حد قد يحول دون عودة العبارة إلى سان بيار عند الرابعة، دخلت إلى أحد محلات الحلوى واشترت خبزاً وبعض الفطائر، آملة أن تستفيق مارشا معافاة، وتتناول القليل من الطعام. غير أن آمالها ذهبت هباءً، لأن صديقتها نامت حتى الساعة الثالثة والنصف، وبقي الإحساس بالغثيان يلازمها، فلم تحاول أن تأكل شيئاً!

بدا من الصعب عليهما أن تعودا إلى العبارة في موعد انطلاقها، وبدا لهما أن الحل الوحيد هو أن يمضيا الليلة هنا، على أن تعود مارشا غداً إلى سان بيار بالطائرة.

وقبل أن تسترسل في النوم ثانية، أخذت أندريا منها اسم الفندق الذي تنزل فيه لتبلغ المدير المسؤول عن الرحلة بما أصابها. وطلبت، بعدئذٍ، من عامل الهاتف أن يعطيها رقم هاتف جاك كوربن. صحيح أنها تعرف رقم هاتف غاب عن ظهر قلب، إلا أنها فضلت ألا تتصل به.

لحسن حظها، كان جاك في المنزل بمفرده، فأبلغها أن غاب خرج لتناول الغداء مع فابريس ولكنه لم يرجع بعد.

إنها أخبار جيدة! ذلك أن أندريا تتمنى في سرها أن تساعدها الظروف فتبقى بعيدة عن غاب ويبدو أن أمنياتها بدأت تتحقق.

بعد أن أعلمت جاك بما حدث معها أعطته اسم الفندق وقالت له إنها لن تعود قبل الغد، لتتمكن مارشا من السفر بالطائرة. وفي هذه الحالة، يستطيع غاب أن يمضي السهرة برفقة فابريس، إن شاء ذلك. أخذ جاك يتفوه بأشياء غريبة عن استياء غاب الشديد لخروجها صباحاً من دون أن توقظه، ولا شك أنه سينزعج جداً إن أخبره بأنها ستمضي الليلة خارج المنزل، لا سيما وأنها لم تأخذ معها هاتفها الخليوي ليتمكن من الاتصال بها.

لم تصدق أندريا كلام جاك، وخطر لها أن جد غاب أصيب بخيبة أمل، لأنه أعد لها من دون أدنى شك، طبقاً من أطباقه الشهية، وأراد أن يدعو كارميل لمشاركتهم في عشاء وداعي.

أما غاب فلا بد أنه يشعر بالاختناق، بعد أن وجد نفسه محتجزاً قربها على مدى اسبوعين بكاملهما، ومن المؤكد أنه سيتنفس الصعداء حين يعلم أن القدر تدخل ليحرره منها خلال الثماني عشرة ساعة المقبلة. فهذا المساء، لن يضطر إلى لعب دور الزوج المحب، اللطيف، الذي ينتظر بفارغ الصبر لحظة يجمعهما سرير واحد. لعله لا يعي ذلك ولكن العرض انتهى!

***

- جدي! إنني في طريقي إلى المنزل، هل عادت أندريا؟

ما إن سمع غاب كلام العجوز، حتى شعر بضيق في صدره، رباه! لا عجب أنه لم يتمكن من العثور عليها! ففي الوقت الذي كانت عالقة فيه في غرفة فندق في مكيلون مع صديقة مصابة بدوار البحر، أمضى غاب و فابريس ساعتين من الزمن، يجوبان شوارع سان بيار بحثاً عنها.

منذ الصباح الباكر، والقلق لا يفارقه، إذ شعر بانزعاج شديد، عندما استيقظ من نومه ليجد السرير فارغاً. وازداد الطين بلة، بعد أن علم أنها غادرت المنزل من دون أن تأخذ هاتفها الخليوي أو تترك له رسالة صغيرة. وكم خشي، حين لم يرَ أثراً لها أو لدراجتها، أن تكون قد أصيبت بمكروه.

ولكن جده أبلغه منذ لحظات بمكانها، وسيذهب حتماً للقائها. لعل العناية الإلهية شاءت أن يقوم السنة الماضية بتمويل شركة سياحية في المدينة من أجل شراء طائرات هيلكوبتر جديدة، بغية تحسين السياحة، والمساعدة في الحالات الطارئة. لم يكن يدرك يومها أنه قد يحتاج إلى خدماتها، بعد مضي أيام قليلة على وصوله إلى سان بيار.

شعر غاب بالارتياح لمعرفته بأن زوجته نزلت في فندق لوميسترال، فعاد إلى المنزل ووضب حقيبة لكليهما، فإن كانت حالة صديقتها الصحية لا تسمح لها بمغادرة غرفتها، عليه أن يعوض ما فاته تلك الليلة في شامباني، ليلة خانته شجاعته فلم يجرؤ على انهاء ما بدأه على حلبة الرقص. صحيح أن رغبته فيها كانت جامحة يومها، إلا أنها لا تضاهي حمى المشاعر المشتعلة الآن في أحشائه، فكلما ضمته بين ذراعيها، أحس وكأنه ولد من جديد.

لم تتمكن الهيليكوبتر من الإقلاع إلا بعد ثلاث ساعات تقريباً، نظراً للضباب الكثيف. وعند الساعة الثامنة تماماً، وصل غاب إلى الفندق في مكيلون، فصعد السلم على عجل، ووضع حقيبته في الغرفة ذات السرير المزدوج ثم توجه إلى غرفة أندريا في آخر الرواق، وقرع الباب.

كان غاب يلهث ولكن ليس بسبب الاجهاد. انتظر قليلاً لكنه لم يسمع جواباً، فعاد وقرع الباب من جديد، إلا أن أحداً لم يردّ عليه. لعل حالة صديقتها الصحية تحسنت فخرجتا لتناول الطعام في أحد المطاعم المجاورة.

ارتأى غاب أن ينزل إلى البهو، بدلاً من الخروج إلى الشارع بحثاً عنها كالمجنون، فيسلي نفسه في قراءة الصحف والمجلات، ريثما تعود زوجته. وبعد مرور قرابة الساعة أخذت الأسئلة تتدافع في رأسه: ماذا لو استدعت حالة صديقتها الصحية نقلها إلى إحدى العيادات المحلية؟

لم تمضِ دقائق قليلة حتى أدرك أن حدسه في محله، بعد أن تحدث إلى البواب.

ـ هلا طلبت لي سيارة أجرة؟

٩ ـ إني راحلة

ـ أندريا؟

خفق قلبها باضطراب لدى سماعها صوتاً ذكورياً عميقاً يناديها من الخلف، فوثبت عن الكرسي الذي تجلس عليه قرب سرير مارتا.

فبعد أن استمرت نوبة التقيؤ طويلاً، تمكنت صديقتها، في نهاية المطاف من النوم. وارتأى الأطباء أن يزودوها بالغذاء اللازم عن طريق المصل لتقليص احساسها بالغثيان.

حبست أندريا أنفاسها، وتشوشت أفكارها لدى رؤيتها قامة غاب الطويلة الضخمة، وقد ارتدى قميصاً سوداء ذات ياقة ضيقة، وبنطلوناً أبرز عضلات فخذيه القوية.

هزت برأسها مذهولة وقالت له هامسة: «كيف أتيت إلى هنا؟».

دنا غاب منها وأمسك وجهها بيديه قائلاً: «أتيت في طائرة هيليكوبتر. هل حسبت أنني سأدعك تقضين الليلة بمفردك، في هذه الجزيرة؟».

لم تقوَ على مقاومة نظراته المثيرة، وما هي إلا لحظة حتى كان يضمها إليه في عناق طويل، فأحست بشيء مختلف فيه، بدا أنه شوق محموم لم يظهره من قبل.

لعله كان سعيداً بخروجه من سجنه الذي دام ثماني عشرة سنة، فلم يجد سبيلاً آخر للتنفيس عن مشاعره. غير أنه لا يملك أدنى فكرة عن الألم الذي يسببه ذلك لها، وفكرت أندريا أنه يملك سحراً يجرف المرء في

تياره، ويتركه على شواطىء الغربة، إنساناً مختلفاً تماماً.

وضعت يديها على صدره وأفلتت نفسها من عناقه، ولكنه راح يدمدم متذمراً، وأحست بأنفاسه المتسارعة.

ـ كم من الوقت ستبقى صديقتك في العيادة؟

ـ لست أدري.

دلّك أعلى ذراعها بإلحاح متزايد، فترنحت أندريا من تأثير رجولته النابضة.

ـ فلنعد إلى الفندق يا حبي، فقد حجزت غرفة لنا فيه. سأترك رقم هاتفي الخليوي، ليتصل بنا الطبيب حالما تصبح مهيأة لمغادرة العيادة.

ـ لا أستطيع يا غاب.

قال لها هامساً: «أندريا! إنها مخدرة، ولن تستفيق قبل الصباح».

ـ وعدتها ألا أتركها وحدها، إنه مكان غريب عنها، ولا تعرف أحداً فيه سواي.

وأحست بالمعركة الضروس التي في داخله:

ـ لم لا ترجع إلى الفندق لترتاح قليلاً؟

أخذ غاب نفساً عميقاً، تردد صداه في أرجاء الغرفة كلها، ثم ترك يديه تتدليان على جانبيه وهما مضمومتا القبضتين، ثم قال لها: «إنني زوجك يا أندريا، ألا تظنين أن مكاني إلى جانبك؟ خطر لي في بادىء الأمر، أنك اختلقت قصة إصابة صديقتك بدوار البحر، كي لا تثيري قلقي وتخبريني بأنك أنت المريضة».

ابتلعت أندريا ريقها بصعوبة: «كما ترى، إنني في أفضل حال».

ـ أحمد الله على ذلك!

اشتعلت شرارة التوتر بينهما، حين قال غاب: «لمَ لم توقظيني هذا

الصباح لأرافقك إلى هنا؟».

- لأنك كنت تنام نوماً عميقاً والإرهاق بادٍ عليك، فخطر لي أن أقوم بنزهة على الدراجة ريثما تصحو، ولكنني التقيت بمارشا وقررنا الذهاب على متن العبارة. كان قرارنا وليد اللحظة.

بعد صمت طويل، سألها: «أندريا، هل فعلت شيئاً جرح مشاعرك؟».

- طبعاً لا!

وضع إصبعه تحت ذقنها وأرغمها على النظر إليه: «أتقسمين بذلك؟».

- أينبغي عليّ أن أقسم لتصدقني؟

لم تطرف بعينيها وهي تطرح عليه هذا السؤال، ورأت في عينيه طيف مشاعر رقيقة ما لبث أن اختفى لتحل محله تعابير غامضة، تعذر عليها فهمها.

- هل تفضلين أن أدعك لوحدك؟

غاب! صرخ قلبها باسمه والألم يعتصره، لكنها قالت: «لا أريدك أن تفعل شيئاً رغماً عنك!».

رسم خطوط شفتيها بأصابعه وقال لها هامساً: «يبدو الإرهاق عليك الآن، ارتاحي على كرسيك وسأسهر معك قربها».

بخفة، أخذ كرسياً بلا ذراعين من زاوية الغرفة، ووضعها قربها. ثم ألقى بجسده ذي العضلات الصلبة عليها.

سألته أندريا وقد عجزت عن تحمل الجو المزعج الذي خيم على المكان: «هل تحدثت إلى والدك ليلة البارحة؟».

- تحدثنا سوياً، وتبين أن والديّ وجان ماري وقعوا جميعاً ضحية هوس ايفانجلين، ولكن الأسرار الدفينة فُضحت، ولم يعد بامكانها أن تلحق الأذى بأحد منا بعد اليوم.

ترقرقت الدموع من عينيها: «إنني سعيدة جداً من أجلك يا غاب».

- أحقاً؟

صعقها رده السريع، فرفعت ناظريها إليه: «كيف تجرؤ على طرح سؤال مماثل علي؟».

تصلب فكه وقال: «ربما لأنني لم أجدك قربي هذا الصباح متشوقة لسماع ما عندي».

أدركت أندريا أن تصرفاتها جرحت مشاعره، وكأنها غرزت سكيناً في قلبه فأدمته. ليتها تستطيع أن ترجع بالزمن إلى الوراء، لتعيد الأمور إلى نصابها، ولكن ذلك مستحيل! أراد غاب أن يشاطرها أهم خبر في حياته، ولكنه وجدها تغط في النوم عند عودته. ولم يجدها في المنزل عندما استيقظ في صباح اليوم التالي. صحيح أنها فعلت ذلك للحفاظ على نفسها، ولكن جزءً منها لن يسامحها أبداً على الألم الذي سببته له.

لزم غاب الصمت خلال الساعات المتبقية من الليل، فيما أراحت أندريا رأسها على ظهر كرسيها. كانت تخشى أن تتفوه بشيء يزيد الوضع سوءاً، وهل من شيء أسوأ من الصمت المريع المخيم عليهما؟

قرابة الساعة الخامسة صباحاً، استيقظت مارشا من النوم وهي تشعر بتحسن ملحوظ. ثم وصل الطبيب عند السادسة والنصف وأكد لها أنها تستطيع مغادرة العيادة ساعة تشاء، فنهض غاب من مكانه وقال: «انتظراني هنا، ريثما أعود إلى الفندق وأجلب حاجاتكما، وأرتب الأمور لنقل دراجتيكما إلى طائرة الهيليكوبتر، ثم أعود لمرافقتكما إلى الطائرة».

أعطته أندريا مفتاح الغرفة ثم أسرعت تحول عينيها عنه، كي لا يقرأ فيهما اللهفة الجارفة التي تعتمل في صدرها. ولم تكد تمر ساعة ونصف الساعة حتى وجدوا أنفسهم في سان بيار، كان الطقس جميلاً والسماء صافية، لا أثر للضباب فيها، ولدى وصولهم إلى الفندق الذي تنزل فيه

مارشا مع أفراد المجموعة، رافقها غاب و أندريا إلى الداخل، ليجدا المدير بانتظارها، مستعداً ليتولى الاعتناء بها.

وبعد أن تعانقت المرأتان واتفقتا أن تبقيا على اتصال، لحقت أندريا بزوجها إلى السيارة. فتوجه غاب إلى متجر تأجير الدرجات ليعيد دراجة مارشا، ثم يتابع طريقه إلى المنزل.

رحب جاك بهما بحرارة، وعيناه القلقتان تتأملان ملامحهما: «يبدو لي أنكما لم تعرفا طعم النوم!».

- إنك محق يا جدي!

- من الأفضل أن تنالا قسطاً من الراحة، لأننا ننتظر ضيفاً عزيزاً على العشاء.

سأله غاب على الفور: «أتعني كارميل؟».

- كلا، إنها والدتك!.

تأوهت أندريا من الألم تأوهاً مسموعاً، فهي لم تشأ أن تقابل والدة غاب، لا سيما وأنها قررت الرحيل بعد أسبوع، كيف يسعها أن تواجهها الآن؟

- حسبتها لن تأتي قبل شهر تموز!

فضحت نبرة صوت غاب المشاعر الحقيقية التي خالجته لدى سماعه الخبر.

- لم تستطع والدتك حضور زفافك، ولم تشأ الانتظار طويلاً للترحيب بزوجة ابنها في العائلة.

أحست بالغرفة تدور من حولها، فحملها غاب بين ذراعيه، وسمعته يتمنى ليلة سعيدة لجده قبل أن يصعد الدرج، وجلّ ما تذكره بعد ذلك هو ذلك العناق الرقيق الذي اغرقها فيه قبل أن يغطيها باللحاف.

فتحت أندريا عينيها فجأة، ونظرت إلى ساعتها، إنها السادسة مساءً، فشهقت وأسرعت تجلس في سريرها. لقد نامت تسع ساعات متواصلة، منذ زمن بعيد لم تنم تسع ساعات بكاملها.

هل وصلت والدة غاب؟ ألهذا السبب تركها وحيدة في السرير؟ رمت الأغطية جانباً وهرعت إلى الحمام لتستحم وتغسل شعرها. ماذا ترتدي؟ أي ملابس تنتقي لتقابل بها والدته؟ هل لملابسها أي أهمية في نظر غاب؟

بعد أن بدلت رأيها عدة مرات، اختارت في نهاية الأمر قميصاً حريرية، عاجية اللون، وبنطلوناً ملائماً ذي ثنيات. بدت ملابسها أنيقة جداً، ولكنها بعيدة عن تكلف فستانها الأسود، الذي لبسته ليلة الحفلة.

تعالت الأصوات من البهو، وبلغ مسمعها صوت نسائي رقيق وهي تنزل السلالم، فأخذت أندريا نفساً عميقاً ودخلت إلى غرفة الجلوس. كان جيل يقف إلى جانب جاك و غاب، وهم يتبادلون أطراف الحديث مع سمراء فاتنة ترتدي بذلة مؤلفة من قطعتين، ذات لون أصفر مائل إلى البرتقالي. بدت عيناها رماديتين وقامتها توازي قامة زوجها طولاً، ولا شك أن هذه المرأة التي بلغت عقدها الخامس ولم تفقد ذرة من سحرها، كانت رائعة الجمال في شبابها، ورأت على ثغرها ابتسامة غاب عينها.

تلاقت عيناها بعيني غاب قبل أن يتقدم نحوها، ويدس ذراعه حول خصرها ويشدها إليه بقوة قائلاً: «أمي، أقدم لك زوجتي أندريا! أندريا؟ هذه أمي، كارول!».

- مرحباً.

حيّت المرأتان بعضهما بتردد، ثم انفجرتا ضاحكتين. بدا الموقف مريعاً ومضحكاً في آن معاً، حتى أخذ الجليد يذوب شيئاً فشيئاً. اقتربت كارول منها وضمتها بين ذراعيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول: «أتعلمين مدى سعادتي لزواج ابني بامرأة تنتمي إلى عالمي؟».

وانبعثت منها حماسة لا تعرف حدوداً ورثها فيليب و برتراند عنها، فدخلت إلى قلب أندريا بلا استئذان. لا عجب أن هذه المرأة سلبت قلب جيل وعقله، إذ كانت تتميز بعفويتها ومودتها، اللتين خلقتا من دون أدنى شك صدمة لدى نساء كوربن، لأنهنَّ يفتقرن إلى القدرة الفطرية على التعبير عن عواطفهن.

قالت لها أندريا بصوت مرتعش: «الحق يقال إنك فاجأتني أيضاً».

أمسكت كارول بيديها وقالت: «أشكرك على مشاعرك هذه، وأعذريني عن تخلفي عن حضور زواجكما. أكد لي غاب أنه أخبرك بأنني كنت في فلوريدا، مع أختي وعائلتها، حين ترك لي الرسالة الصوتية».

- هذا صحيح.

- ممتاز، فلا شيء قد يمنعني من حضور حفل زفاف ابني، إنني أحسد والديك وأتوق للتعرف عليهما.

هز جيل برأسه: «وأنا أيضاً أتوق للقائهما».

- ستتدبر ذلك في أقرب فرصة ممكنة، أليس كذلك يا حبي؟

شعرت أندريا بالضيق لسماعها ذلك فهي لم تعد تستطيع تحمل المزيد.

- السلمون المشوي جاهز!

قال جاك ذلك بصوت خافت، وكأنه شعر بعذاب أندريا، فهب لمساعدتها.

- هلا دخلنا إلى المطبخ؟

تولى غاب مهمة مواكبتها إلى المطبخ، فيما اختارت كارول أن تجلس إلى جانبها، إلى المائدة. وبعد تقديم الطعام، شارك الجميع في الحديث الذي تركز حول الوجبة الشهية وآخر أخبار أفراد العائلة. بدت كارول أماً

وجدة مثالية تولي اهتمامها لأولادها وأحفادها. وتساءلت أندريا لما تراها اتخذت قراراً بالطلاق، مع أن عائلتها هي كل حياتها!

وفي اللحظة التي طرأ فيها هذا السؤال على رأسها، تذكرت أندريا أن الناس سيبدأون بطرح السؤال عليه بشأنها، بعد أسبوع من الآن: تراها هجرت غاب، والحب يعشعش في زوايا منزلهما؟

بعد أن قشر غاب حبتين من الدراق للتحلية، أمسك بيد أندريا، ثم رفع عينيه إلى والدته قائلاً: «علمت أنك تمكثين في منزل ايف أو فيليب، خلال إقامتك في الجزيرة، ولكن عليك أن تخصصي وقتاً لنا».

هز جاك برأسه علامة الموافقة، وإذا بـ جيل يطلق قنبلة أثارت ذهول الجميع: «أخشى أن ذلك مستحيل».

وكم كانت دهشة أندريا عظيمة حين دس ذراعه حول كتف كارول وشدها إليها، بطريقة تدل على التملك، ذكرتها بالطريقة التي يضمها غاب إليه أحياناً. وأحست أندريا بذبذبات كهربائية تجري في الأجواء. وفيما بدت امارات عدم التصديق على وجه غاب، ابتسم جده ابتسامة أضاءت عينيه فرحاً.

- إثر الحديث الذي جرى تلك الليلة، بين أندريا و سيسيل، تكلمت مع ابني حول ما جرى في الماضي، ووضعنا النقاط على الحروف. صحيح أن ايفانجلين ووالدها بذلا جهدهما لتدمير حياة الكثيرين، إلا أننا أقرينا، بأن الكبرياء كانت وراء تفكك عائلة كوربن. في تلك الليلة، عدت إلى المنزل واتصلت بـ كارول طالباً منها أن تسامحني على الجحيم التي عاشته معي خلال سنوات زواجنا الأولى، كم كنت مغفلاً.

- وأنا أيضاً.

قالت كارول ذلك هامسة ثم تابعت: «يريد والدك أن يقول لك إنه بعد أن فتح لي قلبه، طلبت منه أن يسامحني على رفضي التعاطف معه، في

الوقت الذي كان يحتاج فيه إلى من يتعاطف معه».

ـ هذا صحيح، على أي حال، ستقيم كارول، من الآن فصاعداً، في منزلي، لأننا سنتزوج من جديد، في أقرب فرصة ممكنة.

ـ هل علم أخوتي بالأمر؟

جاء صوت غاب أجش، وكادت أندريا ألا تتعرف عليه.

ـ ليس بعد.

بدا التأثر على والد غاب وقد غمرته العواطف الجياشة، فسدت الدموع حنجرته، ومنعته من الكلام لبعض الوقت إلى أن قال: «أردت أن أخبرك أولاً، لأنك السبب في هذه المعجزة».

أكدت والدته له قائلة: «هذا صحيح، يا حبيبي، فعودتك إلى الجزيرة أثارت سلسلة من الأحداث، ساهمت في منح هذه العائلة فرصة ثانية للعيش بسعادة».

حول غاب نظراته إلى أندريا قائلاً: «أظن أن زوجتي لعبت دور الحافز الأساسي».

ابتسم لها جيل: «من دون أدنى شك، فهي توازي والدتك روعة، ولكنني أخشى ألا تعرف سيسيل طعم الراحة بعد اليوم، وهي ترانا نعيش حياة هانئة مع زوجتينا».

ثم تابع يقول: «نسيت أن أخبركم بأننا سنشتري منزلاً جديداً. ستترك المنزل القديم لبرتراند».

ـ أجل، كما قررنا المشاركة في المشروع الذي تحدثت عنه مع والدك.

سألت أندريا متلعثمة، وقد ساءها أن تبقى في الظل: «أي مشروع؟».

حدق إليها غاب بعينين شبه مغمضتين: «المشروع الذي حدثتني عنه

خلال رحلتنا من هاليفاكس إلى سان بيار».

قطبت أندريا جبينها: «لم أعد أذكر، أتقصد مشروع الرحلات المخصصة للطلاب، بغية الاقامة وسط العائلات الفرنسية في الجزر؟».

ـ أحسنت!

طرفت أندريا بعينيها: «ظننت أنك لم تعرني آذاناً صاغية».

ضحك جميع الجالسين إلى المائدة، أما غاب فقال: «سمعت كل كلمة قلتها يا حبي!».

ـ إنها فكرة ممتازة.

بدت الحماسة على وجه جيل، وقال: «يمكننا أن نعد برنامجاً سنوياً، وبفضل معارف كارول في حقل السياحة والسفر ومعارفي من الصيادين، في الجزر، ستتوصل إلى تحضير نشاطات مختلفة، وجلّ ما يهمني في الموضوع هو أن هذا المشروع سيدر أموالاً طائلة، على كل عائلة توافق على استضافة الطلاب».

أسرعت أندريا تقول: «لن نواجه مشكلة في إيجاد عدد وافٍ من الطلاب. في الواقع، قد نصل إلى مرحلة نعجز فيها عن قبول طلبات التسجيل كلها. رأيت البارحة على العبارة، صبي صغير، يتحرق شوقاً لرؤية حوت. فلو قيل لي إنني سأشاهد، خلال رحلتي الثقافية تلك، حيتاناً، لفضلت هذه المغامرة على السفر إلى مونتريال أو الكيبيك، فهذا المكان غني بأشياء لا يجدها المرء في أماكن أخرى، إلا إن سافر إلى جزر غالا باغوس».

توقفت قليلاً عن الكلام، ثم تابعت تقول بحماسة شديدة: «يكمن جمال سان بيار ومكيلون في قربها من القارة، إذ يستطع الطلاب الوصول إليها بواسطة العبارة، إن شاؤوا ذلك، من دون أن يخضعوا للقاحات أو يأكلوا أطعمة غريبة، وهي أمور غالباً ما تثير قلق الأهل على أولادهم

المراهقين. ولا شك أن الطلاب الذين يعيشون بعيداً عن البحار، سيشعرون بالاثارة. يا لها من مغامرة شيقة بالنسبة إليهم!».

راح الجميع يحدق فيها بدهشة، بمن فيهم غاب الذي برقت عيناه بريقاً غامضاً، فأدركت أنها بالغت في الكلام والانفعال.

ـ أظن أننا عثرنا على مدير للبرامج، أليس كذلك؟

قال غاب ذلك بصوت مرتفع، وعيناه مسلطتان على والدته. فأومأت كارول برأسها قائلة: «لن نجد شخصاً أفضل منها، ويمكننا استغلال خبرتها في حقل الكومبيوتر لنشر إعلاناتنا على الانترنيت، ولا أجد مانعاً من مشاركة أفراد العائلة كلهم».

ـ علينا أن نتحرك بسرعة، لتتقذ سان بيار.

راحت أندريا تتأمله وهو يحدق في والديه، وكأنه لم يصدق بعد أنهما تصالحا، ولكن الدليل بدا واضحاً للعيان، فحبهما لم يمت أبداً، وتذكرت في تلك اللحظة علاقة الحب التي بقيت تربط بين والديها على مر السنين. وسألهما غاب: «هل ستتزوجان في الكنيسة؟».

هز والده برأسه: «في الكنيسة عينها التي تزوجنا فيها في الماضي، ولكن أولادنا سيحضرون هذه المرة زواجنا».

ضحكت كارول وقالت: «سيصاب الأب كلوني بالدهشة!».

ـ اوه!.

وقام غاب بحركة بيده جعلتها تنفجر ضاحكة، كم كانت تحب حس الدعابة فيه!

ـ من الأفضل أن نذهب لرؤيته هذا المساء.

قال جيل ذلك وساعد زوجته على النهوض عن المائدة.

استغلت أندريا فرصة مرافقة غاب و جاك للعروسين إلى السيارة،

لترفع الأطباق عن المائدة. وفجأة رن جرس الهاتف، فأسرعت ترفع السماعة:

ـ أندريا! يسرني أن أجدك في المنزل.

إنها مارشا!

ـ تبدين في حالة أفضل.

ـ هذا صحيح، حين اصطحبتني إلى العيادة، شعرت بأنني على حافة الموت.

ـ أردت مساعدتك بأي ثمن.

ـ كنت مذهلة، وزوجك أيضاً، ما رأيك لو نخرج للعشاء معاً، غداً مساءً؟ لن أجد طريقة أفضل لأشكرك على ما فعلته من أجلي.

ـ يسعدني ذلك.

كانت أندريا تعني ماتقوله، عليها أن تشغل وقتها كله، لتبقى بعيدة عن غاب. فأردفت: «أريد أن أتحدث معك عن مشروع تجاري، ستباشر به عائلة زوجي».

ـ ماذا تقصدين؟

ـ حسناً، عليك أن تبدأي بتحضير مجموعة من الطلاب للمجيء إلى سان بيار والإقامة وسط سكانها!

ـ لا بد أنك تمزحين؟ هل تفكرين، أنت وزوجك، باستقبالهم في منزلكما؟

ـ كلا.

أجابتها أندريا بصراحة متناهية.

ـ سأغادر الجزيرة بعد أسبوع من الآن.

ساد الصمت بينهما، لبعض الوقت، ثم علقت مارشا: «لا تقولي لي

إنك تواجهين مشاكل زوجية!».

ضغطت أندريا بيدها على قلبها، لتخفف من حدة الألم الذي شل حركتها. وإذ أحست بوخز في مؤخرة عنقها، أدركت أنها لم تكن لوحدها. التفتت إلى الخلف، فوجدت قامة غاب الضخمة تسد الباب، إلا أنها لم ترَ فيه شيئاً مألوفاً، فبريق عينيه تلاشى، وقسمات وجهه الجذابة بدت وكأنها منحوتة في الصخر. حبست أندريا أنفاسها: «مارشا، علي أن أقفل الخط، ولكنني سأتصل بك في الغد».

وأعادت السماعة إلى مكانها ويداها ترتجفان.

- كم من الوقت مضى على وجودك هنا؟

أجابها بنبرة باردة: «بعض الوقت».

ضمت ذراعيها حول خصرها:

- أين جاك؟

- ذهب مع والديّ، أصبحنا الآن لوحدنا، ولا سبيل للفرار.

تملكها الذعر: «لم أفهم قصدك».

- أرجوك يا أندريا، هذه ليست من شيمك، سألتك البارحة ما إذا أسأت إليك، فأجبتني بسؤال آخر.

وتوقف قليلاً عن الكلام ثم استطرد يقول: «لن أدعك تفلتين مني هذا المساء».

تفادت نظراته الثاقبة. إلا أنه تابع يقول: «هل لديك أدنى فكرة عما شعرت به، حين دخلت إلى هنا وسمعتك تقولين لإنسانة غريبة إنك سترحلين بعد أسبوع من الآن؟ ألا تعتقدين أن من حق زوجك أن يعلم بقرارك هذا قبل سواه؟».

- كنت سأخبرك يا غاب، أقسم لك بذلك!

أجابها بحدة، محاولاً عبثاً أن يسيطر على غضبه: «لا أريد سماع قسمك، طلبت منك الزواج وقبلت، فاتفقنا على ألا نقلق حيال المستقبل. ونأمل أن تحملي طفلاً خلال الستة أشهر المقبلة».

- أظن أن سبب زواجك بي لم يعد له وجود، فخلال السنوات الطويلة الماضية، كنت تعيش في صراع مع احساسك بالذنب، لأنك خذلت جان ماري يوم كانت تحتاج إليك، ولكن الحقيقة التي اكتشفتها اليوم، خلصتك من ذلك العبء المريع، ويمكنك أن تمضي في حياتك وضميرك مرتاح. بعد أسبوع من الآن، سأحررك من وعدك لي، لتجد المرأة المناسبة لك.

- ولكن اتفاقنا لا تنتهي صلاحيته إلا بعد ستة أشهر.

كانت كلماته أشبه بصفعة مدوية.

- إنك رجل نبيل حقاً، ولكنني لا أجد لتضحيتك مبرراً، لا سيما بعد أن عرفت حقيقة جان ماري.

تصلبت شفتاه وبدا الشحوب على وجهه، ثم قال: «لا أظنك ترغبين بانجاب طفل، إن كنت عازمة على الاستسلام بعد شهر واحد فقط».

استجمعت أندريا شجاعتها، وقررت أن تصيب الهدف مباشرة: «أظن أن المهمة تصبح أكثر صعوبة من دون حب».

وانتظرت أن يقول لها إنه يحبها، وقلبها يتخبط بعشوائية. لكنها سمعته يقول: «إنني خارج ولا أعرف متى أعود».

١٠ ـ أحببتك منذ البداية

ـ غابريال! هل أنت هنا؟

سمع صوت فابريس يناديه، ولاح له طيفه من بعيد.

ـ أجل يا صديقي.

ـ أتيت حالما أوصلت الراكب الأخير.

وقفز فابريس إلى المركب بخفة.

ـ ألا تمانع ليز؟

قال غاب ذلك وهو يفك الحبال، ثم عاد إلى خلف الدفة، فلحق به فابريس وهو يقول: «كلا، لقد ذهبت مع الأولاد لزيارة والدتها، حين وجدت رسالتك على هاتفي الخليوي. قلت لها إنني لن أعود قبل الفجر».

لن يجد أبداً صديقاً مثل فابريس، يمكنه الاعتماد عليه دوماً.

ـ هيا بنا!

أشعل غاب المصابيح وقاد المركب إلى خارج المرفأ بسرعة.

ـ إنك تقود «القبرة» بمهارة لافتة وكأنك لم تبتعد عنها قط.

ـ ولكنها أشبه بعجوز على فراش الموت، طلبت مركباً جديداً من النروج، ومن المتوقع أن يصل الأسبوع المقبل، كنت أفكر في طريقة لاهدائه لأبي من دون أن يتسنى له أن يخذلني، ولكن بعد الأحداث التي شهدتها الثماني والأربعون ساعة الماضية، لم تعد هذه المسألة تثير قلقي.

ـ كلامك أشبه بالألغاز.

ـ بعد سنوات طويلة من الفراق، تمكن والداي من حل خلافاتهما، أتصدق بأنهما سيتزوجان الأسبوع المقبل في الكنيسة؟

هز فابريس برأسه: «كلا، لا أصدق ذلك!».

ـ إنني أدعوك للمشاركة في الاحتفال لتتأكد بنفسك من صحة كلامي، قررت أن أهديهما المركب بمناسبة زفافهما.

ذرع فابريس الأرض جيئة وذهاباً لبعض الوقت، ثم قال: «حسناً، أنني أصدقك، ويبدو أن هذا الخبر جعل منك إنساناً جديداً، ولكني أفترض بأن أندريا ليست حاملاً بعد».

كشر غاب استهزاءً: «لا يمكننا التأكد من الأمر إلا بعد أسبوع أو أكثر».

تأفف صديقه قائلاً: «حسناً، أمامنا الليل بطوله».

قال ذلك وتمدد على المقعد وضم يديه إلى صدره. بعد قليل، تناهى إلى مسامعهما صوت عوامة الإرشاد الحزين، من بعيد، فأطفأ غاب المحرك وترك الأمواج تقوم بعملها. ثم قال لصديقه: «إنها لا تحبني!».

ـ هل قالت لك ذلك جهاراً؟

ـ ليس تماماً.

ـ أريد أن أسمع ما قالته حرفياً.

أذعن غاب لرغبته من دون تردد.

ـ دعني أتأكد من أنني فهمت قصتكما بشكل صحيح، قرّر كلاكما الزواج، من دون أن ينبس بكلمة حب أمام الآخر.

ـ لم أجرؤ على الافصاح لها عن مشاعري، خشية ألا تصدقني، وبسبب وضعها الصحي، لم تكن الفرصة سانحة لمغازلتها، فأخبرتها قصتي مع جان ماري، لأترك في نفسها الأثر المطلوب.

- ونجح الأمر.

- ولكن تأثير السحر زال، وسأخسرها يا فابريس.

رفع صديقه رأسه إلى الأعلى وقال: «إذا كنت تعتقد، أنها لم تحبك يوماً، فذلك يعني أنها لم تكن لك لتخسرها. هيا يا غابريال، ألم يخطر ببالك يوماً أنها تزوجت بك بدافع الحب؟».

- ولكنها لم تقل لي شيئاً، وأندريا لا تعرف الكذب.

- زوجتك امرأة متقدة الذكاء، وأظن أنك وجدت فيها نصفك الآخر، أتريدني أن أقول لك ما كنت لأفعله لو كنت مكانك؟

أحس غاب بالألم يمزق قلبه إرباً، فقال: «لا أريد أن أسمع شيئاً!».

- عد إلى المنزل واتهمها بالخداع، قل لها إنك تحبها، وأنك تعرف جيداً أنها تحبك أيضاً.

- أبهذه البساطة؟

- نعم، بهذه البساطة، إنك إنسان مقامر يا غاب وإلا لما تخليت عن ملايينك كلها! فما الذي قد تخسره إن لعبت لعبة قمار إضافية؟ ألا تدرك أنك كسبت الجائزة الكبرى يوم تمكنت من إقناعها بالزواج بك؟ من جهة أخرى، ماذا لو كانت أندريا قد استخدمت تهديدها لك بترك الشركة للإيقاع بك؟ إنك صيد ثمين أشبه بسمكة «الجد» التي لم يصطدها أحد.

تسارعت طرقات قلب غاب: «إن كان كلامك صحيحاً..».

- هل تعرف امرأة، عدا أندريا، قد تشعر بالسعادة إن تخلى زوجها عن ثروته كلها؟

- كلا.

مال فابريس إلى الأمام لتتقابل نظراتهما: «هل تعرف امرأة قد توافق على مرافقتك إلى جزيرة بعيدة، لم تسمع عنها من قبل، لتعيش فيها معك،

مدى العمر، إلا إن كانت تحبك؟ أجب على هذا السؤال إن كنت تملك جواباً».

وعلى الرغم من اضطراب غاب الشديد، أفلتت منه ضحكة حادة. وما لبث أن أدار محرك المركب من جديد، وعادا أدراجهما إلى الجزيرة.

***

بعد ساعات طويلة من محاسبة النفس، جلست أندريا على الشرفة الأمامية تنتظر عودة غاب إلى المنزل، لم يرجع جاك إلى البيت بعد، أتراه مشغول حقاً أم تعمد أن يبقى بعيداً لبعض الوقت؟ إن كان هدفه أن يتركهما لوحدهما، فإن جهوده باءت بالفشل، إذ دقت الساعة الثانية صباحاً، ولا أثر لسيارة غاب على الطريق بعد. أنبأها حدسها بأنه خرج يتسكع برفقة فابريس.

يا لسخرية القدر! فليلة علم أن والديه قررا الزواج ثانية، ساقه القدر إلى المطبخ في اللحظة التي كانت تقول فيها شيئاً لـ مارشا، لا تريده أن يسمعه، أو على الأقل، ليس الآن.

أحست برعشة تسري في جسمها. فدخلت إلى المنزل لتجلب سترة، ولما فتحت الباب الأمامي لتخرج إلى الشرفة من جديد، كادت تصطدم بزوجها، فمد يديه ليثبتها في مكانها قائلاً: «ما الذي تفعلينه هنا في هذه الساعة؟».

جاء صوته مفعماً بالقلق وليس بالغضب، وكم كانت دهشتها عظيمة لرؤيته فقالت: «أنتظر عودتك إلى المنزل».

- لماذا؟

- لأعترف لك بأمر قد يريحني!

أجابها بنبرة ملؤها العاطفة: «أريد أن أعترف لك بشيء أيضاً».

وأخذ يمرّر أصابعه على طول ذراعيها بتململ: «لم أطلب يدك للزواج إلا لسبب واحد فحسب وأظن أنه بات جلياً أمامي».

توقف العالم عن الدوران من حولها، لعلها كذبت على نفسها بشأن أمور كثيرة، ولكنها لم تجرؤ على تصديق المستحيل، حتى هذه اللحظة.

- إنه السبب عينه الذي دفعني للموافقة على الزواج بك.

- إنك مغرمة بي!.

هتف غاب بذلك بصرخة عالية، لا بد أنها بلغت مسامع كارميل.

- أجل يا حبيبي، أجل! ومنذ زمن بعيد، ربما من اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليك، خلال المقابلة.

أجابها هامساً: «اعلم ذلك، فقد كنت هناك، أتذكرين؟».

ثم تابع يقول: «حملت معك إلى المكتب قوة هزت كياني، وزرعت الرعب في قلبي، لأنني أدركت أنك غايتي المنشودة، وامرأة حياتي، وخشيت أن أرتكب غلطة تخيفك مني، وتحملك على الفرار بعيداً، قبل أن يتسنى لي أن أوقعك في حبي، لذا حافظت على رباطة جأشي، منتظراً اللحظة المناسبة».

أحاطت أندريا على وجهه بيديها وقالت: «ولكنك تأخرت كثيراً، فوجدت نفسي أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن أترك الشركة أو أرغم نفسي على الوقوع في حب شخص آخر».

- حين سمعت أنك تواعدين بريت..

وأحست بيده تتوتر وهي تداعب شعرها الحريري.

- أقسم لك بأنني كدت أفقد صوابي!

أحاطت أندريا عنقه بذراعيها، وقالت: «أما أنا، فأؤكد لك أنني فقدت صوابي فعلاً.. أدركت أن علي أن أبتعد عنك.. فوجدت في فترة

النقاهة علاجاً لمرض غاب كورين أو زخماً جديداً للبحث عن عمل آخر».

رماها بتلك الابتسامة التي تنقلها إلى عالم ساحر بعيداً عن هذه الأرض، وقال: «مرض غاب كورين، أعجبني ذلك!».

- إنه مرض مزمن. سأعاني منه إلى الأبد، قال الطبيب إن لا علاج له، ومن الممكن أن تتدهورحالتي مع مرور السنين، عليك أن تعرف ذلك من أول الطريق.

- سأقول لك شيئاً من أول الطريق أيضاً، سننجب الأولاد بطريقة أو بأخرى، وإن دعت الحاجة لاستئصال رحمك، فستبنى أولاداً.

- غاب...

ضمته إلى صدرها بقوة، والسعادة تغمرها. قال لها هامساً وقد دفن رأسه بين خصلات شعرها: «أريد أن أطلب منك خدمة».

- لك ما تريد!.

- أود أن نعقد زفافاً مزدوجاً، إنني أتوق للإعلان عن عهودي أمام الله وأفراد عائلتي.

ضمته أندريا إليها بشدة: «كنت أحلم بذلك، هذا المساء. بينما كنت جالسة في الشرفة أنتظر عودتك».

حملها غاب بين ذراعيه وقال: «حضرت لك مفاجأة مساء أمس، ولكنك أفسدتها، هيا بنا يا زوجتي الحبيبة، آن الوقت لنخلد إلى الفراش. فشوقي إليك يفوق الوصف».

***

بعد مرور أسبوعين، سُمعت أجراس الكنيسة تقرع ابتهاجاً، بينما كان أفراد العائلة والأصدقاء يعبرون قلب مدينة سان بيار متوجهين إلى مطعم الزهرات الثلاث، حيث سيقام حفل العرس.

شعرت أندريا وكأنها تعيش حلماً بهياً، فأصابع غاب المتشابكة بأصابعها تؤكد للعالم كله أنها زوجته، وملكاً له. مشى والداها خلفهما، لتتمكن والدتها من حمل ذيل فستانها الطويل، فلا يتدلى على الأرض ويتسخ.

ولكن لحظة وطأت قدماها أرض المطعم وشمت رائحة السمك المشوي، أحست بالغثيان، احساس كان أكثر حدة من تلك الموجة الخفيفة التي اجتاحتها في الكنيسة.

حاولت في بادىء الأمر ألا تظهر انزعاجها لأحد، ولكن ما إن أجلسها غاب على رأس الطاولة، التي وضعت عليها الأطباق المختلفة. حتى بدأت حالتها تزداد سوءً، وخشيت أن يصيبها ما أصاب مارشا.

مالت نحو والدتها وهمست في أذنها: «أمي، أشعر بالغثيان».

ـ يا للروعة!

قالت والدتها ذلك بنبرة خافتة، ثم تابعت تقول: «قلت لي إن دورتك الشهرية تأخرت أسبوعاً عن موعدها، أذكر أنني بدأت أعاني من غثيان الصباح، منذ اللحظة الأولى التي تكونت فيها في رحمي، أظنك حاملاً. غالباً ما كنت أتناول فطوري مرتين وأتقيأه بعدها، ويبدو أنك ورثت ذلك عني».

ناداها غاب بصوت مذعور: «أندريا! ما الأمر يا حبي؟ تبدين شاحبة».

لم تستطيع أندريا الرد عليه، ولكنها سمعت والدتها تقول له: «لا تقلق. يبدو أنك ستصبح أباً، تهانينا، يا «بابا»».